

الباب التاسع والعشرون

الرهبان والإخوان

١٣٠٠ - ١٠٩٥

الفصل الأول

حياة الرهبنة

لعل الذى أنجى الكنيسة من محنتها لم يكن هو ما لجأت إليه محاكم التحقيق من تعذيب ، بل كان نشأة طوائف جديدة من الرهبان انتزعت من أفواه الضالين دعوة التقشف الدينى والفقر ، وظلت مدى قرن من الزمان تهب طوائف الرهبان ، وغير الرهبان من رجال الدين ، مثلاً طيباً من الإخلاص المطهر للننوس .

وكانت الأديرة قد تضاعف عددها فى أثناء العصور المظلمة ، وبلغت ذروتها فى القرن العاشر المضطرب الذى ساءت فيه الأحوال إلى أقصى حد ، ثم أخذ عددها فى النقصان حين أخذ النظام يسود الشئون الزمنية ، وأخذ الرخاء فى الازدياد : مثال ذلك أنه كان فى فرنسا حوالى عام ١١٠٠ خمسمائة وثلاثة وأربعون ديراً ، وفى عام ١٢٥٠ كان فيها ٢٨٧ ؛ وربما كان هذا النقص فى عدد الأديرة قد عوضه ازدياد متوسط أعضائها ، ولكن الأديرة التى كان رهبانها يبلغون المائة كان جد قليل . وكان لا يزال من السنن المتبعة فى القرن الثالث عشر عند الآباء الأنقياء أو ثقال الظهر أن يهبوا أطفالهم فى سن السابعة أو ما بعدها إلى الأديرة « زلنى » إلى الله . وهكذا بدأ القديس تومس أكويناس حياته فى الدير ، وكانت طائفة الرهبان البندكتيين ترى أن النذر الذى ينذر أبوا الطفل بأن يهباه إلى الدير

لا يمكن الرجوع فيه^(٣) . أما القديس برنار وطوائف الرهبان الجدد فكان من رأيهم أن لا ضير على الطفل الموهوب للدير إذا عاد إلى العالم متى بلغ سن الرشد^(٤) ، وأصبح الراهب الراشد على مر الزمن في حاجة إلى إجازة بابوية إذا أراد أن يرجع في يمينه من غير أن يرتكب ذلك إثماً .

وكانت معظم الأديرة الغربية قبل عام ١٠٩٨ تسير على نمط ما من أنماط طائفة الرهبان البندكتيين بدرجات متفاوتة من الاستمساك بمبادئ هذه الطائفة . فكانت تخصص للمبتدئ سنة يستطيع الطالب في أثناءها أن ينسحب من الدير بكامل حريته ، وفي ذلك يقول الراهب قيصريوس الهيسترباخى *Caesarius of Heisterbach* إن فارساً من الفرسان انسحب من الدير « متذرعاً بتلك الحجة الدالة على الجبن وهي أنه يخشى الحشرات التي في ثياب (الرهبة) ، وذلك لأن ملابسنا الصوفية تأوى الكثير من الحشرات »^(٥) . وكان الراهب يقضى من يومه أربع ساعات في الصلاة ؛ وكانت وجبات الطعام قصيرة الأجل ، وتقتصر عادة على الخضر ؛ أما بقية اليوم فكانت تقضى في العمل ، والقراءة ، والتعليم ، وأعمال المستشفيات ، والصدقات ، والراحة . ويحدثنا قيصريوس بأن دير وزع أنشاء القحط الذي حدث في عام ١١٩٧ ألفاً وخمسمائة صدقة من الطعام في يوم واحد و « حافظ على حياة كل من جاءنا من الفقراء حتى حل موعد الحصاد »^(٦) وذبح دير للسسترسيين في وستفاليا جميع ضأنه وماشيته ، ورهن كتبه وآبنته المقدسة ، ليطعم الفقراء^(٧) ، وشاد الرهبان بعملهم وعمل أرقاء أرضهم أديرة ، وكنائس صغيرة وكبيرة ، وفلحوا ضياعاً واسعة ، وجففوا مستنقعات ، واستصلحوا أرض الغابات ، ومارسوا مائة من الصناعات اليدوية ، وعصروا أحسن النبيذ والجعة . ولقد دربت الأديرة آلافاً من الرجال الصالحين القادرين على الآداب والأنظمة الخلقية والذهنية ، وإن كانت في ظاهر الأمر قد انتزعت الكثيرين منهم من

العالم لتدفعهم في غمار الصلاحية الأنانيّة ، ثم أعادتهم إليه مرة أخرى ليكونوا مستشارين للأساقفة ، والبابوات والملوك ومديرين لأعمالهم (*) .

وفاض ثراء المجتمع المتزايد على مر الزمن على الأديرة ، وكان سخاء الشعب مصدراً لما كان ينغمس فيه الرهبان أحياناً من ترف . ولنضرب لذلك مثلاً دير القديس ركويه St. Riquier ، ولم يكن من أغنى الأديرة ولكنه كان له ١١٧.٠٠٠ تابعاً يملكون ٢٥٠٠ بيت في البلدة التي كان قائماً فيها ، ويحصل من مستأجرها على عشرة آلاف دجاجة وعشرة آلاف ديك مخضى مسمن ، وخمسة وسبعين ألف بيضة ، ... وعلى أجر نقدي معتدل لكل فرد ولكنه في مجموعه كبير^(٨) . وثمة أديرة أعظم من هذا الدير ثراء وهي أديرة مونتى كسينو Monte Cassino ، وكلوني Cluny ، وفلدا Fulda ، والقديس جول St. Gall ، والقديس دنيس St. Denis . وكان رؤساء الأديرة أمثال سوجر Suger رئيس دير القديس دنيس ، وبطرس المبعجل رئيس دير كلوني ، وحتى سامسون Samson رئيس دير القديس إدمند في بيوري ، كان هؤلاء الرؤساء سادة أقوياء عظماء أصحاب ثروات مادية طائلة وسلاطان سياسى واجتماعى عظيم ، وهذا هو سوجر بعد أن أطعم رهبانه وشاد كنيسة^(٧) فخمة كبرى تبقى لديه من الموارد المالية ما يمكنه من أن يتكفل

(*) يتول عالم من كبار العلماء ليس في العادة من يشفقون على الكنيسة : « ليس أدل على كذب التهم التي يذمها السفلة وهي أن رهبان العصور الوسطى كانوا نهمين ، متلفين ، مبذرين ، فاسقين ، ليس أدل على هذا الكذب من مئات السجلات ، وقوائم الجرد التي بقيت حتى اليوم ، والتي تشهد بما كان يتصف به الرهبان من عناية ، وذكاء ، وأمانة في إدارتهم أعمالهم . وإن ما قام به الرهبان من إصلاح اقتصادى لأوروبا في العصور الوسطى ليشهد بأنهم كانوا بوجه عام ملاكاً وزراعاً أذكاء » تاريخ العصور الوسطى الاقتصادى والاجتماعى لطمن Thomson, Economic and Social History of the Middle Ages ٦٣٠ ؛ ويقول رينان المذمك : « إن أكل أعمال المسيحية وأعظمها أثراً هي التي قامت بها طوائف الرهبان » طبعة مارك أوربلي Marc Anrèle بباريس ٦٢٧ .

بنصف نفقات إحدى الحملات الصليبية^(٩) ، ولعل القديس برنار كان يع-
 وجر حين كتب يقول : « لو أنني قلت إنى لم أر رئيس دير يركب على
 أس موكبه مؤلف من ستمين فارساً أو أكثر لكنت من الكاذبين »^(١٠) .
 ولكن سوجر كان رئيس وزراء لا بد له أن يحيط نفسه بمظاهر الأبهة
 والفخامة ليؤثر بذلك في نفوس الشعب ! أما في حياته الخاصة فكان يعيش
 عيشة التقشف والبساطة ، في خلوة متواضعة مراعيّاً جميع قواعد طائفته
 بقدر ما تمكنه من ذلك واجباته العامة . وكان بطرس المبجل رجلاً صالحاً
 ولكنه عجز رغم جهوده المتكررة عن أن يحول دون ازدياد الثروة الجماعية
 في الأديرة التابعة لدير كلوفى - وهى التى كانت من قبل تزعم حركة
 الإصلاح - إلى حد أمكن الرهبان من أن يعيشوا عيشة البطالة الموهنة للقوى
 وإن كانوا أفراداً لا يملكون شيئاً .

إن الأخلاق تفسد كلما زاد الثراء ، وفطرة الإنسان تظهر كلما أمكنها موارده
 من الظهور ، وفي كل جماعة كبيرة أيا كان نوعها يوجد أفراد غرائزهم أقوى من
 إيمانهم . ولقد ظلت كثرة الرهبان مستمسكة بالقواعد التى ارتبطت بها وفيه لها ،
 ولكن أقلية منهم أخذت تنظر إلى العالم وإلى شئون الجسم نظرة أكثر ليناً .
 وكان رئيس الدير فى كثير من الأحيان يعينه سيد إقطاعى أو ملك ويختاره من
 طبقة تعودت الراحة ؛ ولم يكن هؤلاء الرهبان يتقيدون بقيود الأديرة ، فكانوا
 يستمتعون بالصيد ، والقتص ، وألعاب القروسية ، وينغمسون فى السياسة ؛
 وسرّت عدواهم إلى الرهبان أنفسهم . وها هو ذا جرالدوس كمبرنسس Giraldus
 Cambrensis يصور لنا حياة رئيس دير إفاشام Evesham بصورة مروعة
 فيقول : « لم يكن أحد بمنجاة من فجوره » ، وكان جيرانه يخلصون له ثمانية عشر
 ولداً ؛ وكان لا بد من خلعه آخر الأمر^(١١) . وأصبح رؤساء الأديرة المنكبّون على
 مباهاج الدنيا ، السمان ، الأغنياء ، الأقوياء ، هدفاً لسخرية الشعب وتشهير
 الأدباء ، فكان أقسى ما كتب من الهجاء وأبعده عن المعقول وصفاً لرئيس دير

بقلم ولتر ماب Walter Map^(١٢) . ومن الأديرة ما اشتهر بطعامه الشهى وخمره . على أننا يجب ألا ننكر على الرهبان قليلا من الهناهة ، وفي وسعنا أن ندرك مقدار ملهم من الخضر ، واشتياقهم إلى اللحوم ؛ ولا يسعنا إلا أن نعطف على ثرثرتهم ، وشجارهم ، ونومهم وقت الصلاة من حين إلى حين^(١٣) .

ولقد استخف الرهبان ، وهم يقسمون بأن يبقوا عزاباً ، بقوة الغريزة الجنسية التي يستثيرها مراراً وتكراراً ما يشاهدون من مناظر وأمثلة من غير رجال الدين . ويروى قيصر يوس الهيسترباخى قصة تتكرر كثيراً في العصور الوسطى ، عن رئيس دير وراهب شاب خرجا راكبين معاً . ووقعت عينا الشاب على النساء للمرة الأولى فسأل رئيس الدير : « من هؤلاء ؟ » فأجابه « هؤلاء شياطين » فرد عليه الراهب بقوله : « لقد كنت أظنهم أجمل من رأيت في حياتي كلها »^(١٤) . ويقول الزاهد بطرس داميان في آخر أيام حياته الورعة المريرة :

في وسعى وأنا الآن رجل طاعن في السن أن أنظر وأنا آمن إلى وجه ذابل مجمد لامرأة عجوز شمطاء عمشاء العينين . أما من هنّ أجمل منها وجهاً وأكثر زينة فإني أغضّ طرفي عنهن وأحذرهن كما يحذر الصبيان النار . ويلاه أيها القلب المفجوع ! - الذي لا يستطيع الاحتفاظ بأسرار الكتاب المقدس التي قرأتها من أولها إلى آخرها مائة مرة ، ثم لا تنمحي منه صورة لم أرها إلا مرة واحدة^(١٥) .

وكانت الفضيلة تبدو لبعض الرهبان كأنها صراع نفساني بين المرأة والمسيح ، ولم يكن تشهيرهم بالنساء إلا جهوداً يبذلونها لإماتة شعورهم بمقاتلتهم ، كما كانت أحلامهم الصالحة التقية في بعض الأحيان يربطها رضاب الشهوة ، وكثيراً ما كانوا يعبرون عن رؤاهم القدسية الروحية بعبارات مستعارة من العشق الآدمي^(١٦) (*) . وكانت قصائد أوفد من الأشعار المحبوبة في بعض الأديرة ،

ولم تكن مؤلفاته في فن الحب بأقل منها تداولاً بين الرهبان^(١٧) . وكانت التماثيل المقامة في بعض الكنائس الكبرى ، والنقوش المحفورة في أثارها ، بل الرسوم المصورة في بعض الكتب المقدسة نفسها ، تمثل عبث الرهبان والراهبات - تمثل خنازير في ثياب الرهبان ، وأثواب الدير بارزة فوق أعضاء التذكير المنتصبة ، والراهبات يعشن مع الشياطين^(١٨) . ويمثل نقش بارز فوق مدخل يوم الحشر في كنيسة ريمس شيطاناً يجرّ الرجال الآثمين إلى الجحيم ، ومن بينهم أسقف على رأسه تاج الأسقفية . وقد سمح رجال الكنيسة في العصور الوسطى - ولعلهم كانوا من غير الرهبان الذين يحسدون هؤلاء على ما هم فيه من نعيم - سمحوا بأن تبقى هذه الرسوم الهزلية في أماكنها ؛ ولكن رجال الدين هذه الأيام رأوا من الخير إزالة الكثرة الغالبة منها . ولقد كانت الكنيسة نفسها أقسى من وجه النقد إلى آثام رجالها ، وقامت طائفة متتابعة من المصلحين الدينيين تبذل ما وسعها من الجهد لكي تعيد الرهبان ورؤساء الأديرة إلى المثل العليا التي جاء بها المسيح .

الفصل الثاني

القديس برنار

عمت العالم المسيحي في أواخر القرن الحادى عشر ، وفي نفس الوقت الذى تطهرت فيه البابوية ، وامتألت القلوب تحمساً للحرب الصليبية الأولى ، حركة من الإصلاح الذاتى تحسنت بسببها أحوال رجال الدين غير الرهبان ، وقامت فى أثناءها طوائف من الرهبان جديدة أخذت نفسها بقواعد الأوغسطين والبندكتيين الصارمة . فقد حدث فى وقت غير معروف قبل عام ١٠٣٩ أن أسس القديس يوحنا جلبرتس St. John Galbertus ^(١٩) طائفة من القلمبروزا Vallombrosa فى « الوادى الظليل » المسمى بهذا الاسم فى إيطاليا ، وبدأ فيه نظام الإخوة العلمانيين الذى وطدت دعائمه فيما بعد طوائف الرهبان المتسولين . وأهاب المجمع الرومانى المقدس الذى عقد فى عام ١٠٥٩ برجال الدين الذين يقتسمون أعمال الكنيسة ومواردها أن يعيشوا جماعة ، وأن تكون أملاكهم مشاعة بينهم كما كان شأن الرسل الأولين . ولم يستجب بعضهم إلى هذا النداء وبقوا « كهنة علمانيين » ؛ واستجاب له كثيرون منهم ، واتبعوا قاعدة رهبانية يعزونها إلى القديس أوغسطين ، وكونوا من أنفسهم جماعات شبه رهبانية تعرف فى مجموعها باسم « الكهنة الأوغسطين أو الأوسطين Austins » ^(*) . وأنشأ القديس برونو St. Bruno الكولونى فى عام ١٠٨٤ ، من بعد أن رفض أن يكون رئيس أساقفة ريمس ، طائفة الكرثوزيين Corthusians ، وذلك بأن أسس ديراً فى

(*) يجب ألا يخلط بينهم وبين الإخوان الأوغسطين أو الأوسطين الذى أنشأهم الزاهد فى تسكانيا عام ١٢٥٦ .

بقعة منزلة تدعى كارتريز Chartreuse في جبال الألب بالقرب من جرينوبل Grenoble ؛ وأنشأ غيره من الأتقياء الصالحين وحدات كرتوزية في أماكن منزلة بعد أن سئموا ما يسود العالم من نزاع وما يتصف به رجال الدين من تهاون . وكان كل راهب في هذه الأماكن يعمل ، ويطعم ، وينام ، في خلوته الخاصة المنزلة ، ويعيش على الخبز واللبن ، ويلبس ثياباً من شعر الخيل ، ويكاد يلزم الصمت على الدوام . وكانوا يجتمعون معاً ثلاث مرات كل أسبوع للقيام بمراسم القداس ، وصلاة الغروب ، وصلاة منتصف الليل ؛ وفي أيام الآحاد ، والأعياد ينطلقون في الحديث ويطعمون جماعة . وكانت هذه الطائفة أشد طوائف الرهبان صرامة ، وظلت ثمانية قرون كاملة تأخذ نفسها بقواعدها الأصلية وفيّة لها أشد الوفاء .

وأنشأ ربرت المولسميسى Robert. of Molesmes في عام ١٠٩٨ بيت رهبنة جديد في مكان برّى يدعى سيتو Citeaux قريب من ديجون Diion ، وذلك بعد أن أعيته الحيل لإصلاح أديرة البندكتيين المتفرقة التي كان هو رئيساً عليها ، واشتق من لفظ سيتو اسم الرهبان السسترسيين كما اشتق من لفظ كارتريز اسم الرهبان الكرتوزيين . وأعاد ستيفن هاردنج من دورسسترشير Stephen Harding of Dorsetshire تنظيم هذا الدير ووسعه ، وأنشأ له عدة فروع ، ووضع عهد الحب Carta caritatis ليضمن به التعاون السلمي الموحد بين سيتو والبيوت السسترسية المختلفة . وعادت مبادئ البندكتيين إلى كل ما كانت عليه من صرامة ، فكان الفقر التام أهم مستلزماتها ، وامتنع الأعضاء عن أكل اللحم بكافة أنواعه ، وحيل بينهم وبين التعليم ، وحرم عليهم قرض الشعر ، وأمروا أن يتجنبوا جميع مظاهر الأبهة في الملابس الدينية ، والآنية ، والآبنة . وحتم على كل راهب قوى الجسم أن يشترك في الأعمال اليدوية في الحدائق والمصانع التي تجعل الدير مستقلاً عن العالم الخارجي ، فلا يكون لراهب ما

حجة في مغادرة ديريه . وامتاز السترسيون عن جميع الطوائف الأخرى ، رهبانية كانت أو غير رهبانية ، بنشاطهم وحذقهم في الأعمال الزراعية ، وأنشأوا مراكز جديدة لطائفتهم في الأصفاع غير المسكونة ، وجففوا المستنقعات ، وقطعوا أشجار الغياض والغابات ليفسحوا مكاناً للزراعة ، وكان لهم فضل كبير في استعمار ألمانيا الشرقية وإصلاح الأضرار التي ألحقها وليم الفاتح بإنجلترا . وكان يساعد الرهبان السترسيين في هذه الجهود التي يبذلونها في سبيل الحضارة إخوان علمانيون مشهورون نذروا أن يبقوا عزاباً ، صامتين ، أميين^(٢٠) ، يعملون زراعاً أو خدماً نظير الطعام والملبس والمسكن^(٢١) .

وبعثت هذه الصرامة الخوف في قلوب من يريدون الانضمام إلى هذه الطائفة ، ولهذا كان نمو هذه الجماعة القليلة بطيئاً ، ولولا ما بعثه القديس برنار في الطائفة الجديدة من حماسة قوية لقضى عليها في مهدها .

وُلد القديس برنار بالقرب من ديجون (١٠٩١) من أسرة عريقة تنتمي إلى طبقة الفرسان ، وكان في صباه شاباً حياً تقياً ، يؤثر العزلة ، ولم يجد راحة في العالم الدنيوي ، فاعتزم أن يدخل الدير ، وكأنما أراد الرفقة في الوحدة ، فأخذ ينشر دعاوة قوية موفقة بين أهله وأصدقائه ليدخلوا معه دير سيتو . ويحدثنا المؤرخون أن الأمهات والفتيات الصالحات للزواج كانت ترتعد فرائضهن حين يقترب منهن ، خشية أن يغري أبناءهن أو عشاقهن بالترام العفة ، ولكنه نجح على الرغم من دموعهن . ولما أن قبل في دير سيتو (١١١٣) جاء معه بتسعة وعشرين ممن يريدون دخول الدير ، ومنهم إخوة له ، وأحد أعمامه ، وطائفة من أصدقائه ، وأفلح فيما بعد في إقناع أمه وأخته بأن تترهب ، وأقنع أباه أيضاً بأن يترهب بعد أن توعدته بأنه « إن لم يكفر عن ذنوبه فسيحترق إلى أبد الدهر... » وينبعث منه الدخان والرائحة الكريهة »^(٢٢) .

وأعجب استيفن هاردينج من فوره بتقوى برنار ونشاطه إعجاباً حمله على أن

يرسله (١١١٥) على رأس ثلاثة عشر راهباً لينشئ بيتاً سسترسيا جديداً يكون هورئيسه . واختار برنار لبيتته الحديد بقعة شَجيرة على بعد تسعين ميلا من سيتو تعرف باسم الوادى اللامع Clara vallis أو Clairvaux ، ولم يكن فى هذا المكان مسكن ولم يكن فيه قط إنسان . وكان أول عمل قامت به الفئة المتأخية أن بنت بأيديها « ديرها » الأول - وهو بناء خشبي يحوى تحت سقف واحد مصلى ، ومطعما ، وفى أعلاهما مكان للنوم يتصلون إليه بسلم خشبي . وكانوا ينامون فى صناديق نثرث عليها أوراق الأشجار ، ولم تكن النوافذ أكبر من رأس الرجل ولم يكن على الأرض شئ . وكان طعامهم مقصوراً على الخضر إلا سمكة يطعمونها من حين إلى حين ؛ ولم يكونوا يطعمون خبزاً أبيض ، أو توابل ، وقلما كانوا يشربون نبيذاً ؛ فكان هؤلاء الرهبان الحريصون على دخول الجنة يأكلون كما يأكل الفلاسفة الراغون فى طول العمر . وكانوا يعدون طعامهم بأيديهم ، فيتناولون طهوه . وكان من القواعد التى وضعها برنار ألا يبتاع الدير أملاكاً ، وألا يكون له إلا ما يوهب ، وكان يرجو ألا يكون له من الأرض أكثر مما يستطيع الرهبان العمل فيه بأيديهم وبأدواتهم البسيطة . وأخذ برنار وإخوانه المتزايد عددهم يعملون فى هذا الوادى الهادئ فى صمت وقناعة بعيدين عن « زوبعة العالم » يقطعون أشجار الغابة ، ويزرعون ، ويحصدون ، ويصنعون أثاثهم بأيديهم . ويجتمعون فى أوقات الصلاة ليرتلوا الأناشيد بغير أرغن ، ويتلوا مزامير اليوم وترانيمه . ويصفهم ولیم السانت تيرى William of St. Thierry بقواه : « كلما أنعمت النظر فيهم زاد يقينى أنهم أعظم أتباع المسيح كمالاتهم . لا ينقصون إلا قليلا عن الملائكة ، ولكم أرقى كثيراً من الآدميين » (٢٣) . وانتشرت أبناء هذا السلام المسيحي وهذا الاستقلال الذاتى حتى كان فى كليرفو قبل موت برنار سبعة من الرهبان . وما من شك فى أنهم كانوا سعداء فى ذلك المكان ، لأن الذين بعثوا من هذه البيئة الشيعية ليكونوا رؤساء أديرة ، أو أساقفة ،

أو مستشارين ، كانوا كلهم تقريباً يتوقون للعودة إليها ؛ وكان برنار نفسه - وقد عرضت عليه الكنيسة أرقى مناصبها ، وذهب إلى أراض كثيرة بناء على طلبها - يحن دائماً للعودة إلى صومعته في كليرفو « حتى تسبل أيدي أبنائ عيني ، وحتى يوارى جسدى في كليرفو بجوار أجساد الفقراء » .

وكان رجلاً متوسط الذكاء ، ثابت اليقين ، ماضى العزيمة ، متناسق الصفات الخلقية ، ولم يكن يعنى بالعلم ولا بالفلسفة لأنه يحس أن عقل الإنسان وهو جزء من الكون متناه في الصغر عاجز عن الحكم على الكون ، لا يستطيع الادعاء بأنه يفهمه ؛ وكان يدهش من كبرياء الفلاسفة السخيف وهم ينطقون بهذرهم عن طبيعة الكون ، وأصله ، ومصيره . وقد هاله ما يراه أبلار من تحكيم العقل في الدين ، وقاوم هذه النزعة العقلية لأنها تجديف وقحة . وكان يفضل أن يمشى في ضياء معجزات الوحي غير سائل أو متشكك ، مفضلاً هذا عن محاولة فهم العالم . وكان من رأيه أن الكتاب المقدس هو كلام الله ، وإلا كانت الحياة في رأيه بيداء من الشك الخالك الظلام ، وكلما أوغل الدعوة إلى هذا الإيمان الشبيه بإيمان الأطفال ، ازداد يقينه بأن هذا هو الطريق السوى . ولما أن جاءه أحد رهبانه واعترف له في رهبة وفزع أنه لا يستطيع الإيمان بقدرة القس على أن يحول خبز القربان إلى جسم المسيح ودمه ، لم يلمه برنار على ما قال ، وأمره مع ذلك أن يشترك في العشاء الرباني ، وقال له : « اذهب واشترك فيه بإيماني أنا » ؛ ويؤكد لنا الرواة أن إيمان برنار فاض على المتشكك وأنجي روحه^(٢٥) . وكان في وسع برنار أن يكره ويطارده حتى الموت ، أو ما يقرب من الموت ، الضالين أمثال أبلار أو آرنلد البريشيائي لأنهم أضعفوا كنيسة تبذروا له رغم أخطائها وغيوبها مطية المسيح نفسها ، كما كان في وسعه أن يحب برقة لا تكاد تقل عن رقة العذراء التي كان يعبدها بغيرة منقطعة النظر . ورأى يوماً لصاً يساق إلى المشنقة فشفع له عند كونت شميانيا ووعدته أن يوقع عليه عقاباً أقسى من الموت

الذى لا يقاسيه إلا لحظة وجيزة^(٢٦). وكان يعظ الملوك والبابوات ، ولكنه يكون أكثر رضاً عن نفسه حين يعظ الفلاحين والرعاة في واديه . وكان يتسامح في أخطائهم ، ويهديهم بما يضربه لهم بنفسه من مثل صالح ، وينال حبهم الصامت ويبادلهم حباً بحب . ووصل في تقواه إلى حد الزهد المنهك للقوة ، وقد أكثر من الصوم حتى اضططر رئيسه في سيتو أن يأمره بتناول الطعام . وظل ثمانية وثلاثين عاماً يعيش في صومعة واحدة ضيقة في كليرفو ، على فراش من ورق الشجر ، وليس فيها مقعد إلا حفرة في الجدار^(٢٧) . وكانت طببات العالم جميعها وما فيه من أسباب الراحة ، تبدو له وكأنها لا شيء إذا قيسَتْ إلى التفكير في المسيح ووعده . وكتب وهو في هذه النشوة عدة ترانيم غاية في البساطة والرقّة الأخاذة بمجامع القلوب :

أيها المسيح يا صاحب الذكرى الحلوة ،

هب القلب البهجة الحقّة ؛

إن أحلى من الشهد ومن الأشياء جميعها

مشهده الحلو ،

وليس في كل ما يُغتنى شيء أجمل من ذكر عيسى ابن الله

ولا فيما يسمع شيء أحسن وقعاً على الأذن منه

ولا فيما يفكر فيه العقل أحلى منه .

أي عيسى يا أمل التائبين

ما أرق قلبك على المتسولين !

وما أقربك لطالبك !

تُرى ماذا تكون لمن يلقونك ؟

وقلما كان يعنى بغير الجمال الروحي رغم إدراكه جمال اللفظ ، فكان يغنى

عينه خشية أن تسرفا في الاستمتاع الحسى بجمال بحيرات سويسرا^(٢٩) . وكان ديره عارياً من جميع الزينة عدا صورة المسيح مصلوباً ، وكان يلوم دير كلوني لكثرة ما ينفقه من المال في بناء الأديرة التابعة له وزينتها ، ويقول في هذا : « إن الكنيسة تتألاً جدرانها وتغلّ يدها عن فقرائها ، وتطلى حجارها بالذهب وترك أبناءها عراة ، وتفتن عيون الأغنياء بالفضة التي تأخذها من البائسين »^(٣٠) . وكان يشكو من أن دير القديس دنيس العظيم غاص بالقرسان المتكبرين المدرعين بدل العباد السذج ؛ ويسميه : « حامية عسكرية ، ومدرسة الشيطان ، ومعشش للصوص »^(٣١) . وتأثر سوجر بهذا اللوم ، فأصلح عادات كنيسة ورهبانه ، وعاش حتى استحق ثناء برنار .

ولم يكن إصلاح الأديرة الذي سطع ضياؤه من كليرفو ، ورفع مستوى رجال الدين بترقية رهبان برنار إلى مراتب الأساقفة وروساء الأساقفة ، لم يكن هذا إلا بعض ما أحدثه ذلك الرجل ، الذي لم يكن يطلب شيئاً غير الخبز ، من الأثر في جميع الطبقات وفي خلال نصف القرن الذي عاشه . وجاء لزيارته الأمير هنرى الفرنسى أخو الملك وتحدث إليه برنار ، وقبل أن ينقضى اليوم كان هنرى راهباً يغسل الصحاف في كليرفو^(٣٢) . وقد استطاع بعظاته - وقد أوشكت لفصاحتها وجزالة لفظها أن تكون شعراً - أن يوتر في نفوس كل من سمعه ؛ كما استطاع برسائله - وهي آيات خالدة في الدعوة الحماسية الحارة - أن يوتر في المجالس ، والأساقفة ، والبابوات ، والملوك ؛ وأمكنه باتصاله الشخصى أن يشكل سياسى الكنيسة والدولة . وأبى أن يكون أكثر من رئيس ديز ، ولكنه رفع البابوات إلى عروشهم وأنزله عنها ، ولم يكن الناس يستمعون إلى خبر من الأخبار بإجلال وخشوع أكثر مما يستمعون بهما إليه .

وقد خرج من صومعته ليقوم بنحو اثنتى عشرة مهمة دبلوماسية عالية ، كانت في العادة بناء على طلب الكنيسة . ولما أن اختارت طاقتان متنازعتان

أنكليتس الثاني وإنوسنت الثاني للجلوس على كرسي البابوية (١١٣٠)
أيد برنار إنوسنت ؛ ولما أن استولى أنكليتس على رومة دخل برنار إيطاليا
وأثار بقوة شخصيته وخطبه الحماسية مدن لمبارديا لتأييد إنوسنت ؛
وسكرت الجموع بخطبه وتقاه فانكبت عليه تقبل قدميه ومزقت مئزره
إرباً اتخذتها مخلفات مقدسة تورثها أبناءها من بعدها . وأقبل عليه المرضى
في ميلان ، وأعلن المؤمنون المصابون بالصرع والشلل وغيرها من
الأمراض أنهم شفوا من أمراضهم بلمسه . ولما عاد إلى كليرفو بعد
انتصاراته الدبلوماسية جاءت جموع الفلاحين من الحقول والرعاة من أعلى
التلال ، يطلبون إليه أن يباركهم ، فلما تلقوا منه هذه البركة عادوا إلى
كدهم مرفوعي الرأس راضين .

وقبل أن يتوفى برنار في عام ١١٥٣ كان عدد أديرة السسترسيين
قد زاد من ثلاثين ديراً في عام ١١٣٤ (وهي السنة التي مات فيها
استيفن هاردنج) إلى ٣٤٣ ديراً وانضم إلى هذه الطائفة عدد كبير من
الناس متأثرين بتقواه وقوته ، فلم يحل عام ١٣٠٠ حتى كان عدد أفرادها
ستين ألفاً يقيمون في ٦٩٣ ديراً . ونشأت طوائف أخرى من الأديرة
في القرن الثاني عشر ، فأنشأ ربرت الأبرسولى Robert of Abrissol
حوالي عام ١١٠٠ طائفة الفنتشورل Fontevroult في أنجو ، وفي
عام ١١٢٠ تخلى القديس نربير Norbert عن ثروة عظيمة آلت إليه
وأنشأ طائفة « رهبان المرعى الموعود » (*) النظامية في بريمنتره Premontre
بالقرب من ليون Leon . وفي عام ١١٣١ أنشأ القديس جلبرت طائفة

(*) Premonstratensian وتسمى أيضاً طائفة النربيريين نسبة إلى منشأها . أما تسميتها
بطائفة المرعى الموعود فبسببها كما يقول نربير أن المكان الذي نشأوا فيه قد حدد له في رؤيه
ظهرت له وهو في غاية كومي Coucy بالقرب من ليون Leon في مقاطعة ابن Aisme .
(المترجم)

السمبرنجهام Sempringham الجلبريتين الإنجليز على غرار طائفة فنترفول .
وفي عام ١١٥٠ سار بعض الزهاد الفلسطينيين على سنة القديس باسيلي
وانتشروا في جميع أنحاء فلسطين . ولما استولى المسلمون على فلسطين
هاجر هؤلاء الرهبان « رهبان الكرمل » إلى قبرص ، وصقلية ، وفرنسا ،
وإنجلترا . وفي عام ١١٩٨ صدق إنوسنت الثالث على قانون طائفة
الرهبان « الثالوثيين Trinitarians » ، وحضهم على افتداء المسيحيين الذين
وقعوا أسرى في أيدي المسلمين . وكانت هذه الطوائف الجديدة مشغلا
أضاء ظلمات الكنيسة المسيحية .

وأخذت حركة الإصلاح في الأديرة التي بلغت ذروتها على يد القديس
برنار تضعف في خلال القرن الثاني عشر . فقد كانت الطوائف الحديثة
النشأة تحافظ على مبادئها الصارمة بإخلاص معقول ، غير أنه لم يكن
من المستطاع أن يوجد الكثيرون من الناس الذين يستطيعون الصبر على
هذا النظام الصارم في ذلك العهد السريع الخطى ؛ فأثرى السستريسيون
- ومنهم أتباع برنار نفسه في كليرفو - على مر الزمن بما أنهال
عليهم من هدايا ذوى الآمال ، واستطاع الرهبان بفضل الأعيان الموقوفة
من « الثائنين » أن يضيفوا إلى طعامهم اللحم وكثيراً من النبيذ (٣٣) ،
وعهدوا بجميع الأعمال اليدوية إلى إخوانهم العلمانيين ؛ ولما مضت أربع
سنين على موت برنار ابتاعوا عدداً من الأرقاء المسلمين (٣٤) ، وكانت
لهم تجارة واسعة تدر عليهم أرباحاً طائلة في منتجات صناعاتهم المشاعة ؛
وأثاروا حقد نقابات أرباب الحرف لأنهم كانوا معفين من العوائد المفروضة
على نقل البضائع (٣٥) . ولما ضعف إيمان الناس على أثر إخفاق الحملات الصليبية
قل عدد الطلاب الجدد وانحطت بسبب هذا الضعف أخلاق جميع طوائف الرهبان ،

ولكن المثل الأعلى القديم القاضى بأن يحيا الرهبان كما كان يحيا الرسل حياة
شيعية خالية من الملك الفردى لم يمت ، بل بقى فى نفوس الآلاف من الناس
الاعتقاد الراسخ بأن من واجب المسيحي الصادق أن يبتعد عن الثروة
والسلطان ، وأن يحافظ أشد المحافظة على السلام . ثم ظهر فى تلال إمبريا
Umbria بإيطاليا فى أوائل القرن الثالث عشر رجل أعاد تلك المثل العليا
القديمة إلى سابق قوتها ، وذلك ببساطته ، وطهارته ، وتقواه ، وحبه ،
وأدهش الناس بهذه الصفات حتى ظنوا أن المسيح قد ولد من جديد .

الفصل الثالث

القديس فرانسس (*)

وُلد جيوفاني ده برنادون Giovanni de Bernadone في أسيسي Assisi عام ١١٨٢ . وكان أبوه سرييترو ده برنادون Ser Pietro de Bernadone من أثرياء التجار ، ذا تجارة واسعة مع پروفانس ؛ وفيها أحب فتاة فرنسية تدعى بيكا Pica وتزوجها وجاء بها إلى أسيسي . ولما عاد من رحلة أخرى ووجد أنها أنجبت له ولدا بدل اسم الطفل فجعله فرانسسكو Francesco أي فرانسس ، ويبدو أن ذلك كان تحية منه لبيكا . وشب الطفل وترعرع في أجمل صقع في إيطاليا ، ولم يفقد قط حبه لمناظر أمبريا الجميلة وسماها الصافية . وتعلّم من والديه اللغتين الفرنسية والإيطالية ، وأخذ اللغة اللاتينية عن قس الأبرشية ، ولم يكن له بعدئذ نصيب من التعليم المنظم ، ولكنه سرعان ما انتظم في عمل أبيه ، وأغضب سرييترو بما أظهره من قدرة على صرف المال تفوق قدرته على كسبه . فقد كان أغنى شباب البلدة وأسخاهم يداً ، يجتمع حوله أصدقاؤه يطعمون معه ويشربون ويغنون أغاني الشعراء الغزلين . وكان فرانسس بين الفينة والفينة يرتدى حلة المنشدين الجاثلين المتعددة الألوان^(٣٦) . وكان شاباً وسيماً ، أسود العينين ، فاحم لون الشعر ، صبوح الوجه ، جميل الصوت . ويقول المترجمون الألوان له إنه لم تكن له قط صلة بالنساء ، وإنه لم يعرف إلا امرأتين معرفة لا تتجاوز النظر

(*) إن بعض ما كتب عن فرانسس تاريخ صحيح وبعضه قصص . وإذا كان بعض القصص من أروع الآيات الأدبية التي خلقتها العصور الوسطى فقد أثبتنا هذا البعض في الصفحات التالية ونهنا القارئ إلى طبيعته هذه في كل مرة . ونقول هنا من بادئ الأمر إن معظم « زهيرات القديس فرانسس Flovetti » و « مرآة الكمال Speculum Perfectiones » من القصص الموضوعية . وعلى هذا النحو يجب أن يفرض ما نقتبسه من هذين الكتابين .

إليهما (٢٧) ، ولكن هذا بلا ريب يظلم فرانسس بعض الظلم . ولعله سمع من أبيه في تلك السنين التي يتشكل فيها خلقه شيئاً عن الضالين الإلبجنسين والولدسين في جنوبي فرنسا ، وعن إنجيلهم الجديد لإنجيل الدعوة إلى الفقر وحارب في عام ١٢٠٢ في جيش أسيسى ضد پروجيا Perugia ، وأسر ، وقضى في الأسر سنة شغلها كلها بالتأمل العميق . وفي عام ١٢٠٤ تطوع في جيش البابا إنوسنت الثالث . وبينما هو طريق الفراش في إسبوليتو ينتفض جسده من الحمى إذ خيل إليه أن صوتاً يناديه : « لم تهجر الإله إلى الخادم ، والأمر إلى تابعه ؟ » فسأل هو ذلك الصوت : « ربّاه ماذا تريدني أن أفعل ؟ » فأجابه الصوت : « عد إلى موطنك ، وهناك سيقال لك ماذا تفعل » (٢٨) . فما كان منه إلا أن ترك الجيش وعاد إلى أسيسى ، ومن ذلك الوقت أخذ اهتمامه بتجارة أبيه يقلّ واهتمامه بالدّين يزيد . وكان بالقرب من أسيسى مصلى صغيرة للقديس دميان . وبينما كان فرانسس يصلي فيها ذات يوم من أيام شهر فبراير عام ١٢٠٧ إذ خيل إليه أنه يسمع المسيح يتحدث إليه من المذبح ، ويتقبل حياته وروحه قرباناً له . وأحس من تلك اللحظة أنه موهوب إلى حياة جديدة ، فأعطى قس المصلى كل ما معه من المال وعاد إلى منزله . والتقى ذات يوم بشخص مصاب بالجذام فقر منه مشمئزاً ، ثم لام نفسه لمدم إخلاصه للمسيح ، وعاد أدراجه وأفرغ ما كان في كيسه من النقود في يد المجذوم وقبّل يده ، ويقول لنا هو إن هذا العمل كان بداية عهد جديد في حياته الروحية (٢٩) . وأخذ من ذلك الحين يزور مساكن المجذومين ويتصدق عليهم .

وقضى بعد قليل من ذلك الحادث عدة أيام في المصلى أو بالقرب منها ، ويبدو أنه لم يكن يأكل في تلك الأيام إلا القليل الذي لا يغني عن جوع ، فلما ظهر مرة أخرى في أسيسى كان جسمه قد ضعف وهزل ، ولونه قد امتقع ، وثيابه قد تمزقت ، وعقله قد تحير ، حتى أخذ الأطفال في الميدان العام يصبحون

« يزو ، يزو ! pazzo ! pazzo المجنون ، المجنون ! » وهناك عثر عليه أبوه ،
وسماه بالشاب الذى ذهب نصف عقله ، وجره إلى منزله ، وأغلق عليه حجرة
ضيقة . ولما أن أطلقت أمه من حبسه عاد مسرعاً إلى المصلى ، فلحق به
أبوه الغاضب ، وأنبه لتعريضه أسرته للسخرية ، ولألمه لأنه لم يفد شيئاً
من المال الذى أنفقه على تربيته ، وأمره أن يخرج من البلدة التى هو فيها ،
وكان فرانسيس قد باع كل ممتلكاته الشخصية لينفق من ثمنها على المصلى ، فلما
سمع هذا القول من أبيه أعطاه ما كان معه من ثمنها ، وقبله منه أبوه ، ولكنه
لم يعترف لوالده بحقه فى أن يأمر شخصاً هو وقتئذ ملك للمسيح . ولما
استدعى للمثول بين يدى محكمة الأسقف فى ميدان القديسة مارية مجيورى ،
مثل أمامها فى خشوع وحوله جمع حاشد ينظر إليه . وقد خلد جيتو هذا
المنظر فى صورة له ذات روعة . ووثق الأسقف بما قطعه على نفسه من
وعد وأمره أن يتخلى عن جميع أملاكه . وآوى فرانسيس إلى حجرة فى
قصر الأسقفية ، وما لبث أن عاد عارياً كما ولدته أمه ، وألقى أمام الأسقف
بشابه المحزومة وما كان باقياً معه من نقود قليلة وقال : « لقد ظلت حتى
هذه الساعة أدعو بييترو برنادون أبى ، أما الآن فأنى أحب أن أكون خادماً
لله ، ولهذا فأنى أرد إلى هذا المال . . . هو وثيائى وكل ما حصنت عليه
منه ، لأنى من هذه الساعة لن أنطق بغير « أبانا الذى فى السموات » (٤٠) .
وأخذ برنادون الثياب وغطى الأسقف فرانسيس المرتجف بمئزره ، وعاد
فرانسيس إلى مصلى القديس داميان ، ونسج لنفسه ثوباً من أثواب النسك ،
وأخذ يسأل الناس طعامه من باب إلى باب ، وشرع يبنى بيديه المصلى
المتصدعة ، وجاء بعض أهل القرية يساعدونه ، وكانوا يغنون جميعاً
وهم يعملون .

وبينا كان يستمع إلى القداس فى شهر فبراير من عام ١٢٠٩ أثرت فى نفسه
العبارات التى كان القس يتلوها من تعاليم المسيح إلى الرسل : وفيما « أنتم ذاهبون
أكرزوا قائلين إنه قد اقترب ملكوت السموات ، اشفوا مرضى ، طهروا برصاً ،

أقيموا موتاً ، أخرجوا شياطين ، مجاناً أخذتم مجاناً أعطوا ، لا تقتنوا ذهباً ولا فضة ولا نحاساً في مناطقكم ، ولا مزدوداً في الطريق ولا ثوبين ، ولا أحذية ولا عصاً (متى ١٠ : ٧ - ١٠) .

وخيل إلى فرانسس أن المسيح نفسه هو الذى يتكلم وأنه يتكلم إليها مباشرة ، وصمم على أن يطبع هذه الألفاظ وينفذها بنصها - أن يدعو إلى ملكوت السموات ، وألا يقتنى شيئاً ، وأن يرجع إلى الوراء خلال المائتين والألف من الأعوام التى أخفت عن الناس صورة المسيح ، وأن يعيد تشكيل حياته على غرار هذا المثل القدسى .

وهكذا وقف في ربيع ذلك العام في ميدان أسيسى متحدثاً سخرية الساخرين جميعها يدعو إلى إنجيل الفقر وإلى المسيح . واشتأزت نفسه مما كان سائداً في هذا العصر من سعى لكسب المال بالحق أو بالباطل ، وروعه ما رآه من ترف بعض رجال الدين وأبتهتهم ، فأخذ يندد بالمال نفسه ويقول إنه هو الشيطان وهو اللعنة ؛ وأمر أتباعه أن يجتنبوه كما يجتنبوا الرجس^(٤١) ؛ وأهاب بالرجال والنساء أن يبيعوا كل ما يملكون وأن يهبوا ثمنه للفقراء . واستمعت إليه جماعات قايلة في دهشة وإعجاب ، ولكن الكثرة مرت به وحسبته أبله مفتوناً بالمسيح ، ولما قال له أسقف أسيسى الصالح : « يبدو لى أن طريقتك في الحياة من غير أن تملك شيئاً قاسية صعبة على النفس » أجابه فرانسس بقوله : « مولاي ، إننا إذا كان لنا ملك احتجنا إلى الأسلحة للدفاع عنه »^(٤٢) . وتأثرت به بعض النفوس ، وعرض عليه اثنا عشر من تأثروا به أن يتبعوا تعاليمه ويسيروا على سننه ، فرحب بهم ، ولقنهم الفقرة السالفة الذكر من أقوال المسيح ليتخذوها رسالة لهم وقاعدة يسرون عليها ؛ ونسجوا لأنفسهم ثياباً سمراء ، وأقاموا لهم أكواخاً من أغصان الأشجار ، ونبذوا هم وفرانسس عزلة الرهبان القديمة ، فكانوا يخرجون كل يوم حفاة ، ليس معهم شيء من المال ، يعظون الناس . وكانوا في بعض

الأحيان يغيبون عدة أيام ، وينامون في مخازن الدريس ، أو مستشفيات المجنومين ، أو تحت أبواب الكنائس ؛ فإذا عادوا غسل فرانسس أقدامهم وقدم لهم الطعام . وكانوا يحبون بعضهم البعض ، ويحيون كل من يلتقون بهم في الطريق ، التحية الشرقية القديمة : « سلام الله عليكم » ولم يكونوا حتى ذلك الوقت قد أطلق عليهم اسم « فرانسكان » ، فقد كانوا يسمون أنفسهم « الإخوان الصغار Minorites Fratres أو المينورين Minores » . ذلك أنهم كانوا إخواناً لا قساوسة ، ومعنى كونهم صغاراً أنهم أصغر خدام المسيح شأناً ، وأنهم لا يمارسون قط سلطاناً ، بل يخضعون على الدوام لسلطان من هم أرقى منهم ؛ فهم يخضعون لأقل القساوسة درجة ، ويقبلون يد أى قسيس يلقونه ، ولم يرسم إلا عدد قليل منهم في الجليل الأول من نشأتهم قساوسة ، ولم يرق فرانسس نفسه إلى أكبر من مرتبة شماس ، وكانوا في جماعتهم الصغيرة يخدم بعضهم بعضاً ، ويشتغلون بالأعمال اليدوية ، ولم يكونوا يسمحون بوجود متعطل منهم ، أو يشجعون الدراسة العقلية بينهم ، لأن فرانسس لم يكن يرى في المعلومات الزمنية أية فائدة غير تكديس الثروة أو الجرى وراء السلطان : « وسيجد إخواني الذين تغوهم الرغبة في العلم أنهم صفر الأيادي في يوم المحنة »^(٤٣) . وكان يسخر من المؤرخين الذين لا يقومون هم أنفسهم بعمل عظيم ، ولكنهم يشرفون لأنهم يسجلون ما يقوم به غيرهم من جليل الأعمال^(٤٤) . وقد سبق فرانسس قول جيته إن العلم الذي لا يؤدى إلى العمل باطل مسمم فقال : « ليس للإنسان من العلم إلا القدر الذي يستخدمه في العمل »^(٤٥) ولم يكن واحد من الإخوان يمتلك كتاباً بما في ذلك كتاب الترتيل نفسه ؛ وكانوا في عظاتهم يلجأون إلى الغناء كما يلجأون إلى الخطابة ، بل كانوا يحذون حذو الشعراء المغنين الجائلين فيكونون

مطربى الله^(٤٦) .

وكان الإخوان أحياناً يُسخر منهم ويُضربون ، وتُسرق منهم أثوابهم حتى الثوب الأخير . وقد أمرهم فرانسس ألا يبلوا أية مقاومة . وكان المعتدون

فى كثر من الأحياء يدهشون من احتقار الإخوان للمجد والمالك ، وهواحتقار كان يبدو لهم فوق الطاقة البشرية ، ولهذا كانوا يتقدمون إليهم يطلبون الصفح ويعيدون إليهم ما سرقوه^(٤٧) . ولسنا نعرف هل هذا المثل الآتى المأخوذ من زهيرات القديس فرانسيس تاريخ حق أوخيال ، ولكنه فى كلنا الحالين بصور نشوة التقوى التى تسرى فى كل مانسمعه عن القديس :

قال فرانسيس فى يوم من أيام الشتاء وهو سائر فى طريقه من بروجيا يعانى الأمرين من برد الشتاء القارس : « أيها الأخ ليو ، إن الإخوان الصغار يضربون أحسن الأمثلة فى الصلاح والتهديب ، ومع هذا فاكذب إليهم ، ولا تتوان عن تعليمهم ، أن البهجة الكاملة ليست فى هذا » . وبعد أن واصل فرانسيس السير فى طريقه بعض الشيء قال : « أيها الأخ ليو ، إن الإخوان الصغار قد ردوا البصر إلى المكفوفين ، وقوموا المعوجين ، وأخرجوا الشياطين ، وأعادوا السمع إلى الصم ، ومكنوا العرج من المشى المستقيم . . . وأحيوا من قضاوا فى القبر أربعة أيام ، ومع هذا فاكذب : إن السرور الكامل ليس فى ذاك » . ثم سار فى طريقه قليلا وصاح بأعلى صوته : « أيها الأخ ليو ، لو أن الأخ الصغير عرف كل اللغات والعلوم ، وجميع الكتب المقدسة حتى استطاع أن يكشف عن الأمور المستقبلية ويتنبأ بها ، بل استطاع أكثر من هذا أن يكشف عن مخبآت الضمائر والنفوس — فاكذب : إن السرور الكامل ليس فى ذاك » . . . ومع هذا فقد سار بعدئذ قليلا وصاح قائلا : « أيها الأخ ليو ، إن الأخ الصغير يحدق الوعظ إلى حد يستطيع معه أن يهدى الكفرة إلى دين المسيح — فاكذب : « ليس السرور الكامل فى ذاك » . ولما استمر هذا الطراز من الحديث ميلين كاملين سأله الأخ ليو : « أبى ، بالله قل لى أين يوجد السرور الكامل ؟ » فأجابه فرانسيس بقوله : « حين نصل إلى كنيسة مارية الملائكة » (وكانت وقتئذ مصلى الفرانسيسكان فى أسيسى) يبللنا المطر ، متجمدين من شدة البرد ، ملطخين

بالوحل ، معذبين من شدة الجوع ، وحين تدق الباب ويقبل البواب ثائراً ويقول : « من أنتما ؟ » فتقول له : « نحن اثنان من إخوانك » فيرد علينا قائلاً : « إنكما كاذبان ، بل أنتما وغدان تسيران في الطرق تخدعان العالم ، وتختلسان صدقات الفقراء . اذهبا ! » ثم لا يفتح لنا الباب ، ويتركنا في خارجه نعانى آلام الجوع والبرد طوال الليل في المطر والثلج ؛ فإذا ما تحملنا هذه القسوة صابرين . . . من غير أن نشكو أو نحزن ، ونعتقد في ذلة وشفقة أن الله هو الذى أنطق البواب بالسخرية منا - ألا أيها الأخ ليو ، اكتب ، هناك السرور الكامل ! وإذا ما واصلنا دق الباب ، وخرج هو وطردها وهو غاضب ، وسبنا ولطم خدودنا وقال لنا : « أبعداً أيها اللسان السافلان ! - فإذا ما تحملنا هذا صابرين يملأ قلوبنا الحب والفرح فاكتب أيها الأخ ليو : هذا هو السرور الكامل ! وإذا ما عضنا الجوع وآلمنا البرد فدفعنا الباب مرة أخرى ودعوانه بحب الله أن يفتح لنا . . . فخرج بعضا كبيرة معقدة وقبض علينا من قلنسوتينا ، وألقانا على الأرض ، ودحرجنا على الثلج ، ورض كل عظم من عظامنا بتلك العصا الثقيلة ، فإذا ما فكرنا في آلام المسيح الرحيم ، وتحملنا هذه الآلام كلها في صبر ورسور مدفوعين إليها بحب الله - فاكتب أيها الأخ ليو أن هنالك وفي هذا يوجد السرور الكامل » (٤١٨) .

وكانت ذكرى حياته المترفة الباكورة تبعث في نفسه شعوراً بالخطيئة يؤرقه ويقض مضجعه ، وإذا كان لنا أن نصدق ما جاء في الزهبرات فإنه كان في بعض الأحيان يسائل نفسه في حيرة هل يغفر له الله ذنوبه ؟ وثمة قصة مؤثرة تقول إنه في الأيام الأولى من نشأة الطائفة حين لم يكن في وسعهم أن يجدوا كتاب صلوات يتلون منه أدعيتهم المقدسة ، ارتجل فرانسس ورداً للتوبة ، وأمر الأخ ليو أن يعيد بعده عبارات تهم فرانسس بالخطيئة . وحاول ليو أن يعيد التهمة في كل جملة ، ولكنه وجد أنه لم يكن يكرر التهمة ، بل كان يقول بدلا منها

إن « رحمة الله وسعت كل شيء »^(٩). وحدث في مرة أخرى ، وكان فرانسس قد نقه تَوّاً من الحمى ، أن طلب أن يُجَرَّ وهو عار من الثياب أمام الناس في سوق أسيسى وأن يلتق أحد الإخوان على وجهه صفحة من الرماد ، ثم قال هو للحاضرين : « إنكم تعتقدون أنى ولى صالح ، ولكنى أعترف لله ولكم أننى فى ضعفى هذا أكلت لحماً وشربت مرق لحم »^(١٠) . وزاد ذلك القول يقين الناس بطهره وقداسته ، ورووا أن أنخاً شاباً أبصر المسيح والعذراء يحدثانه ؛ وكانوا يعزّون له عدة معجزات ، ويأتون إليه بمريضاهم ومن بهم « مس » ليشفيهم . وأصبحت صدقاته مضرب المثل وموضوع القصص ، فلم يكن يطيق أن يرى أحداً أفقر منه ، وكثيراً ما كان يتصدق على من يمرّ به من الفقراء بالثوب الذى يلبسه حتى كان مريدوه يجدون من أصعب الصعاب أن يبقوه مكتسباً . وتقول مرآة الكمال التى هى فى أكبر الظن من نسج الخيال^(١١) :

وبينا هو عائد من سينا Siena إذ التقى فى طريقه برجل فقير ، فقال لزميل من الرهبان : « يجب أن نعيد هذا المتزّر إلى صاحبه ، لأننا لم نأخذه إلا عارية حتى نعثر على من هو أفقر منا . . . وإنا إذا لم نعطه من هو أشد حاجة إليه منا عدّ هذا منا سرقة » .

وفاض حبه من الآدميين على الحيوان والنبات ، وعلى الجماد نفسه ، وتعزّو إليه مرآة الكمال التى لم تثبت صحتها تسبيحاً للشمس يقول فيه :

حين تشرق الشمس فى الصباح ، يجب على كل إنسان أن يحمده الله الذى خلقها لننتفع بها ... وإذا جن الليل وجب على كل إنسان أن يسبح بحمد الله الذى أمدنا بأختنا النار التى تبصر بها أعيننا ، لأننا جميعاً أشبه بالمكفوفين ، وقد أضاء الله أعيننا بهذين الأخوين .

وكان يعجب بالنار إعجاباً يحمله على التردد فى إطفاء شمعة ؛ لأن النار قد

تعارض في أن تطفأ . وكان قوى الإيمان بما بينه وبين كل كائن حي من أواسج القرى . وأراد أن « يتوسل إلى الإمبراطور » (فردريك الثاني الذي كان مولعاً بصيد الطير) « لكي يخبره بحق حبه لله ولى أن يضع قانوناً خاصاً يحرم على أى إنسان أن يقبض على أخواتنا القبريات أو يقتلها ، أو يلحق بها أذى ما ، وأن يطلب رؤساء البلديات وعمد البلاد ، وملاك القصور والقرى ، إلى كل رجل أن ينثر الحب في خارج المدن والقصور في يوم عيد الميلاد من كل عام حتى نجد أخواتنا القبريات وغيرها من الطير ما تأكله » (٥٢) والتقى مرة بشاب اقتنص بضع قريبات وسار بها إلى السوق . وأقنع فرانسس الشاب أن يعطيه إياها ، وبني القديسون عشوشاً لها « حتى تثمر وتتضاعف » ، وأطاعت القمريات فأثمرت وتضاعفت أضعافاً مضاعفة ، وعاشت بجوار الديبر سعيدة بصداقة الرهبان ، وكانت أحياناً تخطف الطعام من المائدة التي يطعم عليها أولئك الرهبان (٥٣) . ونسجت حول هذا الموضوع عشرات من الأقاصيص لتزينه وتجمله ، منها واحدة تقول إن فرانسس خطب في « أخوات الصغار من الطير » وهو في طريقه من كانورا Cannora إلى بيغانيا Bevagna ؛ فنزلت إليه الطيور التي على الأشجار لتستمع إليه ، وظلت ساكنة بينا كان فرانسس يحتم عظمته :

أخواتي الصغار من الطير ! ما أكثر ما أنتن مديونات به إلى الله خالقكن ، ومن واجبنك أينما كنتن وأنى كنتن أن تحمدنه لأنه وهبكن حلة ثنائية وثلاثية . لقد وهبكن الحرية التي تمكنكن من الذهاب أينما شئن . . . وفوق هذا فإنكن لا تزرعن ، ولا تحصدن ، والله يطعمكن ويهيكن الأنهار والعيون لتشربن من مائها ؛ ويهيكن الجبال والوديان لتأوين إليها ، والأشجار الباسقة التي تبين فيها أعشاشكن ، وإذ كنتن لاتستطعن أن تغزلن أو تخطن فإن الله يكسوكن أنتن وأبناءكن . . . فاحذرن إذن يا أخواتي الصغار أن ترتكن ذنب الكفران بالنعمة ، ولا تغفلن أبداً عن حمد الله (٥٤) .

ويؤكد لنا الأخوان جيمس وماسيو أن الطيور كانت تنحني احتراماً لفرانسيس ، وأنها لم تكن تبرح أماكنها حتى يباركها . والزهرات Fioretta التي نقلنا منها هذه القصة هي تبسيط باللغة الإيطالية لكتاب Actus Beati Francisci المكتوب باللغة اللاتينية (١٣٢٣) ، وهي أقرب إلى الأدب منها إلى التاريخ الحق ، ولكنها تعد في مستوى أجمل مؤلفات عصر الإيمان وأعظمها متعة .

ولما قيل له إن إنشاء طائفة دينية جديدة يتطلب الحصول على إذن من البابا ، سافر فرانسيس ومريدوه الاثنا عشر إلى رومة في عام ١٢١٠ ، وعرضوا طلبهم ومبادئهم على إنوسنت الثالث . فنصحهم البابا العظيم بلطف أن يؤجلوا مسألة الإنشاء الرسمي للطائفة الجديدة حتى يحين الوقت لاختبار مبادئهم اختباراً عملياً ، وقال لهم : « أبنائي الأعزاء ، إن حياتكم لتبدو لي أقسى مما تطيقون ، نعم إنى أرى أنكم شديدو التحمس لمبادئكم . . . ولكن من واجبي أن أفكر فيمن سيأتون بعدكم خشية أن يكون أسلوب حياتكم فوق ما يطيقون » (٥٥) . وأصر فرانسيس على طلبه ، وخضع له البابا آخر الأمر - خضعت القوة الممثلة في شخص البابا إلى الإيمان الممثل في شخص فرانسيس - ، وقص الإخوان شعورهم ، وخضعوا لرجال السلطة الدينية ، وحصلوا من البندكتيين في مونت سباسيو Mt. Subasio القريب من أسيس على مصلى القديسة ماري الملائكية St. Mary of the Angels ، وهي مصلى لا يزيد طولها على عشر أقدام ، وقد بلغ من صغر مساحتها أن أطلق عليها فيما بعد اسم پورتى أنكولا Portiuncula - « أى الجزء الصغير » . وبني الإخوان لهم أكواخا حول المصلى ، وكانت هذه الأكواخ أولى أديرة طائفة القديس فرانسيس الأولى .

وانضم إلى الطائفة أعضاء جدد ، ولم يقتصر الأمر على هذا ، ولكن فتاة ثرية في الثامنة عشرة من عمرها هي كلارا دى اسكى Clara dei Sciffi طلبت

إليه أن يأذن لها بإنشاء طائفة ثانية من طوائف القديس فرانسس خاصة بالنساء (١٢١٢) . وابتهج القديس لهذا الطلب أعظم ابتهاج - فقد غادرت الفتاة بيتها ونذرت نفسها للفقير ، والطهر ، والطاعة ، وأصبحت رئيسة دير فرنسيسى أقيم حول مصلى القديس دميان . ثم أنشئت طائفة ثالثة من طوائف القديس فرانسس - هى الطائفة الثلاثية - من بين العلمانيين الذين لم يكونوا يرتبطون بقواعد القديس فرانسس كاملة ، ولكنهم أرادوا أن يتبعوا هذه القواعد قدر المستطاع ، وأن يعيشوا فى « الدنيا » ، ويساعدوا الطائفة الأولى والثانية بعملهم وصدقاتهم . وحملت الطوائف الفرنسيسية المطردة الزيادة إنجيلها إلى بلدان أميريا (١٢١١) ، ثم حملته فيما بعد إلى غيرها من مقاطعات إيطاليا . ولم يكن هؤلاء الرهبان ينطقون بشيء عن الضلالة ، بل كانوا يعطون الناس عظات بسيطة فى شئون الدين ؛ ولم يكونوا يطلبون إلى المستمعين أن يأخذوا أنفسهم بالعفة ، والفقير ، والطاعة التى وهبوا هم أنفسهم لها ، بل كانوا ينادونهم « خافوا الله وعظموه ، وأثنوا عليه وسبحوه ... وتوبوا إليه واستغفروه ... فإنكم تعلمون أنا عما قليل ميتون ... تجنبوا الشر ، وثابروا على الخير » .

لقد طالما سمعت إيطاليا هذه الألفاظ من قبل ، ولكنها قلما سمعتها من رجال أوتوا من الإخلاص البين مثل ما أوتى هؤلاء الرجال . وأقبل الناس ذرافات ليستمعوا إلى مواعظهم ، وعرفت قرية فى أميريا أن القديس فرانسس مقبل عليها ، فخرجت على بكرة أبيها لتحييه بالأزهار ، والأعلام ، والأناشيد^(٥٦) . ولما أقبل على سينا Siena وجد المدينة فى حرب أهلية ؛ فلما استمع الحزبان المتحاربان إلى مواعظه أقبلوا عليه خاضعين ، وأنهموا نزاعهم طوعاً لأمره إلى حين^(٥٧) . وكانت هذه الرحلات التبشيرية التى قام بها فى إيطاليا هى التى أصيب فيها بالمalaria التى قضت على حياته فى سن مبكرة .

يبد أن ما لقيه من النجاح فى إيطاليا وجهله بالإسلام قد شجعه على مواصلة

العمل ، فاعتزم أن يذهب إلى بلاد الشام ويدعو المسلمين والسلطان نفسه إلى اعتناق الدين المسيحي . ولهذا أبحر في عام ١٢١٢ من إحدى الثغور الإيطالية ولكن عاصفة بحرية قذفت بسفينته إلى شاطئ دلاشيا واضطرته أن يرجع إلى إيطاليا ؛ غير أن إحدى الأقاليم تقول إن « القديس فرانسس أدخل في دينه سلطان بابل » (٥٨) . وتقول قصة أخرى أكبر الظن أنها غير صادقة كسابقتها إنه سافر في ذلك العام نفسه إلى أسبانيا ليدخل المسلمين في دين المسيح ، ولكنه حين وصل إليها أصيب بمرض شديد اضطر مرديه أن يعودوا به إلى أسبسي . وتروى قصة أخرى مشكوك في صحتها أنه جاء إلى مصر ، وأنه مر بسلام في صفوف جيش المسلمين الذي كان يقاوم الصليبيين عند دمياط ، وعرض أن يخوض النار إذا وعده السلطان أن يعتنق هو وجنوده الدين المسيحي إن خرج من النار سالما ؛ ورفض السلطان هذا العرض ولكنه أمر بأن يعد للقديس حرس يصحبه إلى معسكر المسيحيين . وروى فرانسس حين رأى ما أظهره جنود المسيح من وحشية وهم يذبجون السكان المسلمين حين استولى الصليبيون على دمياط (٥٩) ، فعاد إلى إيطاليا مريضاً محزوناً ، وأصيب وهو في مصر ، فضلاً عن مرض الملاريا ، بمرض أوشك في مستقبل حياته أن يفقده بصره .

وازداد أتباع القديس في أثناء غيابه زيادة أسرع مما يستطيع معها السيطرة عليهم . ذلك أن شهرته جعلت الأتباع ينضمون إليه دون أن يفكروا في الأمر التفكير الواجب ، فأخذ بعضهم يندمون على تسرعهم ، وشكا البعض الآخرون صرامة مبادئ الطائفة ، فنزل فرانسس عن بعض القواعد وهو كاره . وما من شك كذلك في أن انتشار الطائفة التي انقسمت إلى عدة بيوت منتشرة في أنحاء أمبريا قد تطلب منه مهارة إدارية وكياسة لا قبل له بهما لشدة انهماكه في مسأله الصرفية . من ذلك ما يروى أن راهبا اغتاب زميلا له فأمره فرانسس أن يأكل قطعة من روث حمار حتى لا يحلو الخبث في لسانه من بعد . وصدع

الراهب بالأمر ولكن زملاءه هالهم العقاب أكثر مما هالتهم الجريمة (٩٠) .
وتخلى فرانسس في عام ١٢٢٠ عن زعامة الطائفة ، وأمر أتباعه أن يختاروا
لها غيره مرشداً عاماً ، وارتضى فيما بعد أن يكون راهباً بسيطاً . لكنه أزعجه
بعد عام من ذلك الوقت ما رآه من استمرار التراخي في إطاعة المبادئ الأولى
(١٢١٠) فوضع للطائفة قواعد جديدة - هي « العهد » الذائع الصيت -
أراد بها أن يتقيد أتباعه تقيداً تاماً بمراعاة يمين الفقر التي أقسموا أن يراعوها ،
ونهى الرهبان عن الانتقال من أكوأخهم عند الپورقي أنكولا إلى الأحياء
الطيبة الهواء التي أنشأها لهم أهل المدينة ؛ وعرض هذه القواعد على هونوريوس
الثالث فأحالها إلى لجنة من المطارنة لمراجعتها ، فلما خرجت من أيديهم كانت
قد أخذت بنحو اثنتي عشرة قاعدة من قواعد فرانسس وبمثلها من التعديلات
المخففة ، وهكذا تحققت نبوءة إنوسنت الثالث .

وعمد فرانسس في ذلك الوقت على كره منه ، وإطاعة لما أخذ به نفسه
من خشوع ، عمد إلى حياة قضى معظمها في التفكير ، والعزلة ،
والزهد ، والصلاة . وجاءته شدة خشوعه وقوة خياله من حين إلى
حين بروى المسيح ، أو مريم ، أو الرسل . وفي عام ١٢٢٤ غادر أسيسي
مع ثلاثة من مربيه وخرج يقطع الجبال والسهول حتى وصل إلى صومعة
على جبل فرنا M. Verna بالقرب من شيوزي Chiusi ، وأقام منفرداً
في كوخ منعزل وراء أخدود عميق لا يسمح لأحد غير الأخ ليو أن يزوره ،
وأمره ألا يأتي إليه إلا مرتين كل يوم ، وألا يجيء إذا لم يتلق رداً على ندائه
بأنه قريب منه . وفي اليوم الرابع عشر من سبتمبر عام ١٢٢٤ يوم عيد
تمجيد الصليب المقدس ، وبعد صوم طويل وليلة قضاها ساهراً مصلياً -
في هذا اليوم خيل إلى فرانسس أنه رأى ملكاً ينزل من السماء يحمل معه صورة
للمسيح المصلوب ، ولما توارى الشبح أحس بآلام غريبة وتبين زوائد لحمية في
كفيه وظهري يديه ، وفي أسفل قدميه وأعلاهما ، وفي جسمه كله شبيهة في أماكنها

وفي لونها بالجروح التي أحدثتها في ظن الناس المسامير التي يعتقدون أنها دقت أطراف المسيح في الصليب والحربة التي نفذت في جنبه (*) .

وعاد فرانسس إلى صومعته وإلى أسيس ، وشرع بعد عام من ظهور تلك القروح يفقد بصره ، إلى أن كان يوماً في زيارة لدير القديسة كلارا ففقد بصره فقداناً تاماً . ومرضته كلارا حتى عاد إليه نور عينيه واستبقته في دير القديس دميان شهراً من الزمان ، وفيه أُلّف في يوم من أيام ١٢٢٤ « تسبيحة الشمس » بالنثر الإيطالي الموزون ، ولعله ألفها وهو في نشوة الفرح أيام النفاة من مرض عينيه (٦٢) :

ربّاه يا ذا الخير والجلال والسلطان الأعظم ،

إليك الحمد ، والمجد ، والتكريم ، وكل البركات ؛

إنك أنت وحدك يا ذا الجلال خالق بها

وما من أحد يليق به أن يذكرك .

إليك الحمد يارب أنت وجميع مخلوقاتك ،

وأكثر ما يكون ذلك الحمد لأخيّن الشمس

الذي يهبنا النهار ويضيئنا به

والشمس جميلة ساطعة ذات روعة ،

بينها وبينك يا ذا الجلال بعض الشبه ،

تسبّح بحمدك يارب قمر السماء ونجومها ؛

فقد خلقتها في السماء صافية ، ثمينة ، جميلة

(*) قيل إنه ربما كان سبب هذه الفقاع هو الملاريا الحبيثة . وما هو معروف أن هذا المرض يحدث نزيفاً في الجلد من الدم الأرجواني ، لعدم معرفة القوم وقتئذ بوسائل العلاج الحديثة (٦١) .

تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ يَا رَبَّ الرِّيحِ ، وَالْهَوَاءِ ، وَالسَّحْبِ ، وَالْجَوَاءِ كُلِّهَا ،
الطَّيِّبِ مِنْهَا وَغَيْرِ الطَّيِّبِ ، وَهِيَ الَّتِي تَهْبِهَا الْقُوَّةُ لِلْمَخْلُوقَاتِ .

تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ يَا رَبَّ أَخْتِنَا الْمِيَاهِ

ذَاتِ النِّفْعِ الْعَظِيمِ وَالتَّوَاضُّعِ الْجَمِّ ، الثَّمِينَةِ النَّقِيَّةِ .

تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ يَا رَبَّ أَخْتِنَا النَّارِ

الَّتِي أَضَاءَتْ بِهَا دَجَى اللَّيْلِ ،

وَهِيَ جَمِيلَةٌ ، وَمُبْتَهَجَةٌ ، وَشَدِيدَةٌ وَقَوِيَّةٌ ،

تُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ يَا رَبَّ أَخْتِنَا وَأَمْنَا الْأَرْضِ ،

الَّتِي تَمَدُّنَا بِالْغِذَاءِ وَتَسِيطِرُ عَلَيْنَا ،

وَتَخْرِجُ لَنَا الْفَاكِهَةَ الْمُخْتَلِفَةَ الْأَشْكَالَ وَالْأَزْهَارَ ،

وَالْأَعْشَابَ ذَاتِ الْأَلْوَانِ .

يُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ يَا رَبَّ مَنْ يَغْضُونَ عَنِ النَّاسِ حُبَّاءَ فَيْكِ ،

وَيَحْتَمِلُونَ آَلَامَ الْمَرَضِ وَالْمَحْنِ ،

طُوبَى لِمَنْ يَحْتَمِلُونَهَا فِي هُدُوءٍ ،

لَأَنَّكَ أَنْتَ يَا ذَا الْعِظَمَةِ سَتَضَعُ عَلَى رُءُوسِهِمُ التَّيْجَانَ .

وَرَأَى بَعْضُ الْأَطْبَاءِ فِي رَيْئِي أَنْ يَمْرُوا بِقَضِيبٍ مِنَ الْحَدِيدِ الْمَتَوَهِّجِ
عَلَى جِهَتِهِ لِيَعَالَجُوا بِذَلِكَ مَرَضَ عَيْنَيْهِ بَعْدَ أَنْ مَسَحُوهُمَا « بَبُولٍ غَلَامٍ لَمْ يَبَاشِرْ
قَطَّ النِّسَاءَ » . وَيَقَالُ إِنَّ فِرَانَسَ نَادَى : « الْإِخْ النَّارِ : إِنَّكَ جَمِيلٌ فَوْقَ
كُلِّ الْمَخْلُوقَاتِ ، فَفَنَ عَلَى فِي هَذِهِ السَّاعَةِ ، وَإِنَّكَ لَتَعْلَمُ مَقْدَارَ حُبِّي الْعَظِيمِ
الدَّائِمِ لَكَ » ؛ وَقَالَ فِيهَا بَعْدَ إِنَّهُ لَمْ يَحْسُ قَطَّ بِالْمِ . وَاسْتَرَدَّ مِنْ قُوَّةِ الْبَصَرِ
مَا يَكْفِيهِ لِأَنْ يَبْدَأَ رَحْلَةَ أُخْرَى يَعْظُ فِيهَا النَّاسَ ، وَلَكِنْ مَتَاعِبَ السَّفَرِ
لَمْ تَلْبِثْ أَنْ أَتَاهَا قُوَاهُ ؛ وَأَقْعَدَهُ دَاءُ الْمَلَارِيَا وَمَرَضُ الْإِسْتِسْقَاءِ ، فَعَادُوا
بِهِ إِلَى أُسَيْسَى .

واضطروه رغم احتجاجه إلى الرقاد في قصر الأسقفية ؛ وسأل الطبيب أن يصدقه الخبر ، فقليل له : إنه لا يكاد يبقى حيا بعد الخريف ، وأدهش جميع الحاضرين إذ بدأ يغنى ، ثم أضاف ، على حد قولهم ، مقطوعة أخرى إلى تسبيحة الشمس :

نُسبح بحمدك يا رب يا من مننت علينا بأختنا مَيِّتة الجسد التي لاينجو منها بشر .

فوا أسنى على من يموتون وهم آثمون
وطوبى لمن هم طوع إرادتك المقدسة ،
لأن الميِّتة الثانية لن ينالهم منها أذى (٦٣) .

ويقال : إنه ندم في تلك الأيام الأخيرة على زهده لأنه « أساء به إلى أخيه الجسم » (٦٤) . ولما خرج الأسقف من عنده أقنع فرانسس الرهبان — أن ينقلوه إلى پورتي أنكولا ؛ وفيها أملى وصيته ، وهى وصية تجمع بين التواضع والقوة ، فقد أمر أتباعه أن يقنعوا « بالكنائس الفقيرة المهجورة » ، وألا يقيموا في بيوت لا تتفق مع الإيمان التي أقسموها بأن يظلوا فقراء ؛ وأن يسلموا للأسقف كل ضال أو ناكث للعهد من رهبان الطائفة ؛ وألا يغيروا قط مبادئهم (٦٥) :

وأدركته المنية في اليوم الثالث من شهر أكتوبر من عام ١٢٢٦ ولما يتجاوز الخامسة والأربعين من عمره ؛ وكان في اللحظة الأخيرة ينشد أحد المزامير . وبعد سنتين من وفاته سمته الكنيسة قديسا . وكان زعيما آخران يسيطران على هذا العصر القوى الحركة هما إنوسنت الثالث وفرديريك الثانى . فأما إنوسنت فقد رفع مقام الكنيسة إلى أعلى ذروته ، ومن هذه الذروة هوت بعد قرن من الزمان ؛ وأما فرديريك فقد رفع الإمبراطورية إلى ذروة مجدها ، ومن هذه الذروة هوت بعد عقد واحد . ولسنا ننكر أن فرانسس قد بالغ في فضائل الفقر والجهل ،

ولكنه بعث القوة في الدين المسيحي بأن أعاد إليه روح المسيح . وأولو العلم وحدهم هم الذين يعرفون اليوم البابا والإمبراطور ، أما القديس الساذج فيتغلغل حبه في قلوب الملايين من بني الإنسان .

وبلغ عدد أعضاء الطائفة التي أنشأها خمسة آلاف عضو عند وفاته ، وانتشرت في بلاد المجر ، وألمانيا ، وإنجلترا ، وفرنسا ، وأسبانيا . وكانت هي الدعامة التي تعتمد عليها الكنيسة في عودة شمالي إيطاليا من الضلالة إلى الكاثوليكية . ولم تقبل إنجيل الفقر والأمية الذي كانت تنادى به إلا أقلية صغيرة ، لأن أوربا أصرّت على التخطيط في تيه الثروة ، والعلم ، والفلسفة ، والشك المثير للنفوس . وفي هذه الأثناء (١٢٣٠) تحلل رهبان الطائفة مرة أخرى من القواعد المعدلة التي وافق عليها فرانسس وهو كاره ؛ فلم يكن يُنتظر من الناس أن يبقوا زمناً طويلاً ، وأن يبقوا بالعدد المطلوب ، محتفظين بذلك المستوى العالي من الزهد الذي لا يكاد يقبله عاقل ، والذي عجل منية فرانسس . فلما خفت وطأة قواعد الطائفة بعض الشيء زاد عدد الإخوان الصغار حتى بلغ قبل عام ١٢٨٠ نحو مائتي ألف راهب يقيمون في ثمانية آلاف دير ، وحتى أصبحوا من كبار الواعظين ، وحتى حملوا رجاله الدين بما ضربه لهم من الأمثلة على أن يقوموا بالوعظ والإرشاد ، وكانت هذه العادة حتى ذلك الوقت مقصورة على الأساقفة دون غيرهم . وخرج من بينهم قديسون أمثال القديس برنردينو السينائي Bernardino of Siena والقديس أنطوني البدواي Antony of Padua ، كما قام من بينهم علماء مثل روجر بيكن ، وفلاسفة مثل دن اسكوتس Dun Scotus ومعلمون مثل اسكندر الهاليسي Alexander of Hales ، وأضحى بعضهم عمالاً لحاكم التحقيق ؛ وارتقى بعضهم إلى كراسي الأساقفة ، ورؤساء الأساقفة ، والبابوية ؛ وقام كثيرون منهم بمغامرات تبشيرية في بلاد أجنبية بعيدة . وتوالت عليهم الهبات من الأتقياء الصالحين ، وتعلم بعض زعمائهم ، مثل الأخ إلياس ،

حب الترف ، وأقام لذكرى فرانسس تلك الباسلقا الرائعة التى لا تزال تنوّج نل أسيسى وإن كان مؤسس الطائفة قد حرّم إقامة الكنائس الكبرى . ولقد كانت رسوم سيابيو Cimabue وجيتو Giotto فى هذه الباسلقا أول نتاج ذلك الأثر العظيم الخالد الذى كان للقديس فرانسس ولتاريخه وقصصه فى الفن الإيطالى .

واحتج كثيرون من أبناء الطائفة على التحلل من بعض قواعد فرانسس وآووا إلى صوامع أو أديرة صغيرة فى جبال الأبنين يعيشون فيها زهاداً « روحيين » أو « متحمسين » ، أما بقية الفرنسيين فقد آثروا الأديرة الرحبة . وكان الروحيون يقولون إن المسيح والحواريين لم يكن لهم متاع ؛ ووافقهم على هذا القديس بونا فنتورا Bonaventura ، وصدق البابا نقولاس الثالث على ذلك الرأى فى عام ١٢٧٩ ، غير أن البابا يوحنا الثانى والعشرين أعلن فى عام ١٣٢٣ أنه رأى خاطئ ؛ ومن ذلك الحين عدّ « الروحيون الذين أصروا على الدعوة إلى هذا المبدأ من الضالين ، وقعت حركتهم . وبعد مائة عام من وفاة فرانسس حُرقت محاكم التحقيق أتباعه عند أعمدة التحريق .

الفصل الرابع

القديس دمنيك

يظلم الناس دمنيك حين يقولون إن اسمه يوحى بمحاكم التحقيق ، ذلك أن دمنيك لم يكن هو الذى أنشأ تلك المحاكم ، ولم يكن هو الذى تلقى عليه تبعة ما لحأت إليه من إرهاب ؛ فقد كان نشاطه مقصوراً على هداية الناس بالقدوة والموعظة الحسنة . وكان أقوى من فرانسس شكيمة ، ولكنه كان يحله ويراه أعظم منه قداسة ، وحباه فرانسس بحبه جزاء له على هذه الصفات الطيبة . وكان عمل الرجلين فى جوهره واحداً : فكلاهما نظم طائفة عظيمة من الرجال لا يعتمدون إلى نجاة أنفسهم بطريق العزلة ، بل بالتبشير بين المسيحيين وغير المسيحيين . وأخذ كلاهما من الضالين أعظم أسلحتهم إقناعاً - وهو مدح الفقر والقيام بالوعظ ، وكان لهما معاً فضل إنقاذ الكنيسة .

ولد دمنجو ده جزمان Domingo de Guzman فى قلعة رويجا من أعمال قشتالة (١١٧٠) ونشأ فى رعاية عم له من القساوسة ، فكان رجلاً من آلاف الرجال الذين تمكنت المسيحية من نفوسهم ، وعمرت بها قلوبهم . ويقال إنه لما نزل القمح بمدينة بلنسية ، باع جميع متاعه ، وفيه كتبه الثمينة ليطلع بشمها فقراء المدينة . وأصبح قساً أغسطينياً نظامياً فى كنيسة أسما Osma ، وصحب أسقفها فى عام ١٢٠١ فى بعثة تبشيرية إلى طولوز ، وكانت وقتئذ مركز الفتنه الألبجنسية الضالة . وكان مضيفهما نفسه ألبجنسيا ، وقد يكون من الأقاصيص الموضوعة أن دمنيك هداه إلى الدين القويم فى أثناء الليل . وأوحى إليه نصيح الأسقف ، والمثل الذى ضربه له بعض الضالين ، فعمد إلى حياة الفقر الاختيارى .

ومشى حافى القدمين ، وبذل ما يستطيع من الجهد ليعيد الناس بطريق السلم إلى حظيرة الدين القويم . والتقى في منبليه بثلاثة من مندوبى البابا - أرندل

Arnold وراؤل Raoul وبطرس الكاسلنوى Peter of Castelnew

وروع حين شهد ثيابهم الغالية وترفهم ، وعزا إلى هذا ما أقرأ به من عجز عن كفاح الضلالة ، وأخذ يوثبهم بجرأة لا تقل عن جرأة أنبياء العبرانيين : « إن الضالين لا يردون الناس عن دينهم ويضمونهم إليهم بما يظهرون من القوة والأبهة ، ولا بمواكب الخدم والحشم ، وإنما يردونهم بالوعظ الحامسى ، وبالحشوع المائل لخشوع الحوارين ، وبالتشف ، والاستمساك بالدين » (٦٦) ويقال إن المندوبين استحووا من عملهم ، فصرفوا حاشيتهم وخلعوا نعالمهم .

وأقام دمنيك فى لانجويديك عشر سنين (١٢٠٥ - ١٢١٦) ، يعظ الناس بكل ما أوتى من غيرة وحماسة . ولم يذكر اسمه فى حادث ذى صلة بالاضطهاد البدنى إلا ما قيل من أنه أنجى أحد الضالين من اللهب عند عمود الإحراق (٦٧) . ويطلق عليه بعض أتباعه تفاخراً به اسم - Persecutor Haere ticorum - وليس معنى هذا حتماً أنه مضطهد الضالين بل قد يكون معناه أنه مطاردهم فحسب . وجمع حوله طائفة من الوعاظ ، بلغ من تأثيرهم أن اعترف البابا هونوريوس الثالث (١٢١٦) بأن « الإخوان الوعاظ » طائفة جديدة ، وصدق على دستورهم الذى وضعه لهم دمنيك ، واتخذ الرجل مركزه الرئيسى فى رومة ، وأخذ يجمع الأنصار ويعلمهم ، ويبث فيهم من روحه الحماسية التى كادت تبلغ حد التعصب ، ثم بعثهم يحوسون خلال أوروبا حتى كيف Kiev من جهة الشرق ، والبلاد الأجنبية ، ليهدوا المسيحيين والكفار إلى دين المسيح . ولما عقد أول اجتماع للدمنيكيين فى بولونيا عام ١٢٢٠ ، أقر دمنيك أتباعه بأن يوافقوا بإجماع الآراء على دستور الفقر المطلق . ومات فى هذه البلدة بعد عام من ذلك الاجتماع .

وانتشر الـدمنيكيون ، كما انتشر الفرنسيسيون ، فى كل مكان فكانوا

إخواننا ، متسولين ، جوالين . ويصف ما يثوباريس في عام ١٢٤٠ طائفتهم في إنجلترا بقوله :

إنهم قوم شديدو الاقتصاد في طعامهم ولباسهم ، لا يقتنون ذهباً ولا فضة ولا شيئاً ما لأنفسهم ، يطوفون بالمدن ، والبلدان ، والقرى ، يدعون إلى الإنجيل . . . ويعيشون جماعات من عشرة أو سبعة . . . لا يفكرون في الغد ، ولا يحتفظون بشيء ما للصباح التالي . . . يعطون الفقراء من فورهم كل ما بقي لديهم من الطعام الذي يتصدق بها الناس عليهم . يسرون حفاة ، ولا يحتفظون إلا بالإنجيل ، وينامون بثيابهم على الحصر ، ويتخذون الحجارة وسائد يضعونها تحت رؤسهم (٦٨) .

واضطلعوا في أعمال محاكم التحقيق بدور نشيط لم يكن على الدوام مشوباً برقة القلب ، وعينهم البابوات في مناصب رفيعة وأرسلوهم في بعثات دبلوماسية خطيرة ، والتحقوا بالجامعات ، ونبغ منهم رجالان جباران في الفلسفة المدرسية هما ألبرتس ماجنس وتوماس أكويناس ، وكانوا هم الذين أنتقدوا الكنيسة من أرسطو بأن بدلوه رجالاً مسيحياً . ولقد أحدثوا هم والفرنسيسيون ، وإخوان الكرمل وأوستن ثورة في حياة الرهبنة ، وذلك باختلاطهم بعمامة الشعب كل يوم في أثناء الخدمات الدينية ، وسموا بالرهبنة في القرن الثالث عشر فوهبوا من القوة والجلال ما لم تستمتع بمثله قبل .

وإن النظرة الشاملة إلى تاريخ الرهبنة لا تؤيد إشراف علماء الأخلاق في مدحها ولا سخريه شائذها . وفي وسعنا أن نذكر أمثلة جمة من سوء السيرة بين الرهبان وهذه الأمثلة إنما تلفت أنظارنا لأنها الشواذ وليست القاعدة ؛ وهل منا من بلغ من الطهر والصلاح درجة يحق له معها أن يتطلب من أية طائفة من الناس حياة تقية لا تشوبها أدنى شائبة ؟ ولقد نجا الرهبان الذين بقوا مخلصين لأيمانهم

— أى الذين عاشوا مغمورين فى فقرهم ، وعفتمهم وتقواهم — نجا هؤلاء من الغيبة ، ومن التاريخ ؛ ذلك أن الفضيلة لا تنقل أخبارها ، وأن القراء والمؤرخين يملون تكرارها . فنحن نسمع عن « صروح شاذخة » يملكها الرهبان الفرنسيسيون منذ عام ١٢٤٩ ، وفى عام ١٢٧١ أبلغ روجر بيكن — الذى طالما تفرق سامعوه من حوله لشدة مغالاته — أبلغ هذا الراهب البابا أن « الطوائف الحديثة قد سقطت سقوطاً مروعاً من علياء كرامتها الأولى » (٦٩) . ولكن هذه ليست هى الصورة التى يصورها لئله الأخ سلمين Salimbene فى أخباره الصريحة الدقيقة (١٢٨٨ ؟) فيها هو ذا راهب فرنسيسى ينتقل بنا إلى ما وراء السجف وإلى الحياة اليومية للطائفة التى ينتمى إليها . ولسنا ننكر أن فى حياة أفرادها هفوات متفرقة ، وأن فيها شيئاً من التنازع والتحاسد ؛ ولكن جواً من التواضع ، والبساطة ، والأخوة ، والسلام يغمر هذه الحباة الشاقة المكبوتة (٧٠) . وإذا ما دخلت بين الفينة والفينة امرأة فى هذه القصة ، فكل ما لها فيها من أثر أنها تضيف مسحة من الرشاقة والحنان على حياة العزلة والضيق التى يحياها أولئك الرهبان . وها هو ذا مثل من ثرثرة الأخ سلمين الصريحة :

كان فى دير بولونيا شاب يسمى الأخ جيدو Guido اعتاد أن يغط فى نومه غطيظاً عاليا لا يستطيع معه إنسان أن يبقى معه فى نفس البيت . ولهذا امر أن ينام فى سقيفة من الخشب والقش . ولكن هذا أيضاً لم يُنج منه الإخوان ، لأنى هزيم هذا الرعد الملعون كان يتردد صدهاء فى جميع أنحاء الدير . ولهذا اجتمع التساوسة وذوو الرأى من الإخوان على بكرة أبيهم . . . وأصدروا قراراً رسمياً أن يردوه إلى أمه التى خلعت الطائفة ، لأنها كانت تعرف هذا كله عن ولدها قبل أن تضمه إلينا . ولكنه مع ذلك لم يرسل إلى أمه ، وكان عدم إرساله بفعل الله . . . ذلك أن الأخ نقولاس قال فى نفسه : إن الغلام سيتردد لعيب طبيعى فيه ، دون

أن يرتكب هو نفسه ذنباً ، فكان يدعو الصبي في كل يوم عند مطلع الفجر أن يأتي إليه ويخدمه في ساعة القداس ، حتى إذا فرغ منه أمر الغلام أن يركع وراء المذبح يرجو أن ينال منه بعض البركة . وفي هذه الساعة يلمس الأخ نقولاس بيديه وجه الغلام وأنفه ، ويدعو الله أن يمن عليه بنعمة الصحة . وبجملته القول أن الغلام شفى فجأة من مرضه شفاء تاماً ، ولم يسبب للإخوان بعدئذ متاعب أخرى . وأصبح من هذه الساعة ينام نوماً هادئاً سالماً كما تنام الزغبة(*) :

(*) وتسمى أيضاً الفأرة النائمة وهي حيوان بين الفأر والسنجاب dormouse .
(المترجم)

الفصل الخامس

الراهبات

كانت العادات المألوفة في المجتمعات المسيحية منذ أيام القديس بولس أن تهب بعض الأرامل وغيرهن من النساء الصالحات ، أو اللاتي يعشن وحدهن ، بعض أيامهن وثروتهم أو كل هذه الأيام والثروة إلى أعمال البر . ثم أخذت بعض النساء في القرن الرابع ينافسن الرهبان ، فتركن شؤون الدنيا وعشن عيشة دينية منفردات أو مجتمعات ، وندرن أنفسهن للفقر ، والطهر ، والطاعة ؛ حتى إذا كان عام ٥٣٠ أنشأت اسكولاستيكا Scholastica توأمة القديس بندكت ديراً للنساء بالقرب من جبل كسينو Monte Cassino يسير على دستوره وتحت إشرافه . وأخذت أديرة النساء البندكتية من ذلك الحين تنتشر في أنحاء أوروبا ، حتى كان عدد الراهبات البندكيات يضارع عدد الرهبان البندكتيين . وافتتحت طائفة الرهبان السترسين أول دير للنساء في عام ١١٢٥ ، ثم افتتحت أشهر أديرتها كلها وهو دير پورت رويال Port Royal في عام ١٢٠٤ ، ولم يحل عام ١٣٠٠ حتى كان في أوروبا ٧٠٠ دير سسترسى للنساء (٧٣) . وكانت معظم الراهبات اللاتي دخلن أديرة هذه الطوائف القديمة من الطبقات العليا (٧٣) ، وكثيراً ما كانت الأديرة ملاجئ للنساء اللاتي تضيق بهن بيوت أهلهن أو اللاتي لم يكن يوائمن أذواق هؤلاء الأهلين . ومن أجل هذا اضطر الإمبراطور مجوريان Majorian أن يحرم على الآباء التخلص من بناتهم الزائدات عن حاجتهم بإرغامهن على دخول الأديرة (٧٤) . وكان دخول أديرة النساء البندكتية يتطلب عادة بائنة ، وإن كانت الكنيسة قد حرمت جميع الهبات إلا الاختيارية منها (٧٥) . ولهذا

كان في وسع رئيسة الدير أن تكون ، كما كانت الرئيسة الوارد ذكرها في أشعار تشوسر Chaucer ، امرأة من أسرة عريقة ، ذات تبعات كثيرة ، تدبر أملاكاً واسعة هي مصدر إيراد ديرها . وكانت الراهبة في تلك الأيام تسمى « السيدة » لا « الأخت » :

وأحدث القديس فرانسس انقلاباً كبيراً في نظم أديرة النساء كما أحدث انقلاباً في نظم أديرة الرجال ؛ ولما أن أقبلت عليه القديسة كلارا Clara في عام ١٢١٢ وأبدت إليه رغبتها في أن تنشئ للنساء طائفة من الراهبات كالتى أنشأها هو للرجال ، تغاضى عن النظم الكنسية ، وتلقى منها إيمانها ، وإن لم يكن وقتئذ أكثر من شماس ، وضمها إلى طائفة الرهبان الفرنسيسيين وأذن لها أن تنشئ طائفة الكلاريات الفقيرات The Poor Clares ، وأيد إنوسنت الثالث ، بما اعتاده من قدرة على خرق حرفية القوانين في سبيل روحها ، هذا الإذن (١٢١٦) . وجمعت القديسة كلارا حولها بعض النساء الصالحات اللاتي عشن معها عيشة فقيرة مشتركة ، يغزلن وينسجن ، ويعينن بالمرضى ، ويوزعن الصدقات . ونسجت حولها القصص الخرافية التي لا تكاد تقل في تمجيدها عما نسج حول فرانسس نفسه ، منها ، على حد قولهم ، أن أحد البابوات :

جاء إلى ديرها ليستمع إلى حديثها عن الأمور القدسية والسماوية ... وأمرت القديسة كلارا بأن تمد المائدة ، ووُضعت عليها أرغفة الخبز لكي يباركها الأب المقدس ... وركعت القديسة كلارا في خشوع عظيم ، وسألته أن يتفضل ببارك الخبز ... فأجابها الأب المقدس بقوله : « أيتها الأخت يا كلير Clare ، يا أعظم النساء وفاء وإخلاصاً ، إني أحب أن تباركي أنت هذا الخبز ، وأن ترسمي فوقه علامة الصليب المقدس ، صليب المسيح ، الذي وهبت نفسك كاملة إليه » . فأجابته القديسة كلارا بقولها : « مغفرة أيها الأب المقدس ؛ لو أنني ، وأنا المرأة الفقيرة الحقيرة ، بلغت بي المرأة أن أنطق بهذه البركة في حضرة خليفة المسيح لحق على

أشد اللوم . ورد عليها البابا قائلا : « ولكيلا يعزى هذا العمل إلى غطرستك وجرأتك بل يعزى إلى فضيلة الطاعة منك ، فإنى آمرك ، بحق ما يجب عليك من الطاعة المقدسة ، أن تباركى ... أنت باسم الله هذا الخبز » . فلم تجد القديسة كلارا وقتئذ مناصاً من أن تبارك الخبز في خشوع بعلامة الصليب الأقدس عملاً بواجب الطاعة المفروضة عليها . ومن أعجب الأشياء أن علامة الصليب ظهرت على جميع تلك الأرغفة مرسومة أجمل رسم . فلما رأى الأب المقدس هذه المعجزة ، طعم من الخبز وغادر المكان وهو يحمد الله ويودع بركته مع القديسة كلارا (٧٦) .

وماتت كلارا في عام ١٢٥٣ ، وما لبثت أن ضمت إلى القديسين والقديسات . ونظم الرهبان الفرنسيون في عدة أماكن مختلفة مثل هذه الطوائف **الكلارية** ، أو طوائف كلارا الفقيرة . وكذلك أنشأت طوائف الرهبان المتسولين — الدمنيكية ، والأوغسطينية ، والكرملية — طائفة ثانية من الراهبات ؛ ولم يحل عام ١٣٠٠ حتى كان عدد الراهبات في أوروبا لا يقل عن عدد الرهبان . ونزعت أدبرة الراهبات في ألمانيا نزعة صوفية شديدة ، وفي فرنسا وإنجلترا كثيراً ما كانت ملاجئ لنساء الأسر الشريفة اللاتي « هُدين » لترك شئون الدنيا ، أو اللاتي أصابهن الهجر ، أو الخيبة ، أو النكل . ويكشف دستور الناسكات Ancren Rwie ما كان يطلب إلى الراهبات الإنجليزيات أن يتصفن به في القرن الثالث عشر . ولربما كان الأسقف پور Poore هو الذى وضع هذا الدستور لدير نسائي في ترانت Tarrant من أعمال دورستشير Dorsetshire . ويخيم على هذا الدستور جو قائم من الحديث الطويل عن الخطيئة والنار ، وبعض الدم التجديفي لجسم المرأة (٧٧) . ولكن نغمة من الإخلاص الحميل تخفف من وقع هذا القتام ، وهو من أقدم نماذج النثر الإنجليزية وأنبهها (٧٨) .

وبعد ، فإن من السهل على الإنسان أن يجمع من عشرة قرون أمثلة رائعة

من الفساد الخلقى المؤلف . فقد دخلت بعض الراهبات الأديرة على الرغم منهن^(٧٩) ووجدن متاعب في حياة التقى والصلاح ، ولقد رأى ثيودور رئيس أساقفة كنتربرى وإجبرت أسقف يورك من الواجب عليهما أن يحكما على رؤساء الأديرة ، والقساوسة ، والأساقفة غواية الراهبات^(٨٠) .

وكتب إيفو Ivo أسقف تشارتر (١٠٣٥ - ١١١٥) يقول إن بعض راهبات دير القديسة فارا Fara يحترفن الدعارة ، ويرسم أبلار (١٠٧٩ - ١١٤٢) صورة شبيهة بهذه الصورة لبعض لأديرة الفرنسية القائمة في أيامه ؛ ووصف إنوسنت الثالث دير أجاثا Agatha بأنه ماخور انتشرت علوى فساد الحياة فيه وسوء سمعته في جميع أنحاء الإقليم المجاور له^(٨١) . ويرسم ريجو Rigaud أسقف رون (١٢٤٩) صورة طيبة بوجه عام للطوائف الدينية المنتشرة في أسقفيته ، ولكنه يتحدث عن دير من أديرة النساء فيه ثلاث وثلاثون راهبة وثلاث أخوات من غير الراهبات وجدت منهن ثمان يحترفن الفسق أو يشبهه في أنهن يحترفنه ، « ولا تكاد رئيسة الدير تتبعد عن الخمر ليلة واحدة »^(٨٢) . وحاول بنيفاس الثامن (١٣٠٠) أن يرقى بقواعد الآداب التقليدية في الأديرة فأمر بالتشديد في عزلة الراهبات عن العالم ، ولكن أمره هذا لم يكن في الإمكان تنفيذه^(٨٣) ، ولما جاء الأسقف ليودع هذا القرار في أحد أديرة النساء في أسقفية لنكلن Lincoln قذفت الراهبات به رأسه ، وأقسمن أنهن لن يطعنه قط^(٨٤) ، وأكبر الظن أن هذه العزلة لم تكن مما نص عليه في قسمهن ، ولم يكن لرئيسة الدير الواردة في أقاصيص تشوسر عمل تقوم به لأن الكنيسة حرمت على الراهبات أن يخرجن حتى للحج^(٨٥) .

ولر أن التاريخ كان يعنى بذكر أمثلة الطاعة للقواعد المألوفة عنايته بذكر الأمثلة التى تخرق فيها هذه القواعد ، لاستطعنا في أغلب الظن أن نذكر في مقابل كل زلة آئمة ألف مثل من الإخلاص والأمانة . ولقد كانت دساتير الأديرة في كثير من الحالات قاسية قسوة تخرجها عن طاقة البشر ، وكانت خليفة

(١١ - ج - ٥ - مجلد ٤)

بالخروج عليها . من ذلك أنه كان يتطلب إلى الراهبات الكرنوزيات ،
والسترسيات أن يلتزمن الصمت فلا يتكلمن إلا إذا لم يكن من الكلام
بد - وذلك قيد شديد على الجنس اللطيف . وكانت الراهبات في العادة
يقمن بجميع ما يحتاجه من أعمال التنظيف ، والطبخ ، والغسل ،
والحياطة ؛ ويصنعن الملابس للراهبان ، والفقراء ، والأغنية التبليية
للمذبح ، وأثواب القسس ؛ وكنّ ينسجن السجف ، والأقشة التي تزين
بها الجدران ، وينقشن عليها بأصابعهن الرقيقة ، ونفوسهن الصابرة ،
نصف تاريخ العالم . وكنّ ينسجن المخطوطات ويزينها بالرسوم والحروف
الكبيرة الجميلة ويقبلن الأطفال للإقامة في الدير ، ويعلمنهم الأدب ،
وقانون الصحة ، والفنون المنزلية ، وكانت كثيرات منهن يعملن ممرضات
في المستشفيات ، وكنّ يقمن في منتصف الليل ليصلين ، ثم يقمن مرة
أخرى قبل الفجر ، ويتلون الصلوات الأخرى في ساعاتها المحددة . وكانت
أيام كثيرة أيام صوم ، لا يذقن فيها الطعام حتى تحين وجبة المساء .

وإننا لنأمل أن تكون هذه القواعد الشديدة قد خرقت أحياناً . ونحن إذا
ما رجعنا بعقولنا إلى القرون التسعة عشر التي عاشتها المسيحية ، وإلى
من فيها من الأبطال ، والملوك ، والقديسين ، صعب علينا أن نخصى
كثيرين من الرجال الذين اقتربوا من الكمال المسيحي كما اقتربت منه
الراهبات ؛ وما أكثر الأجيال التي سعدت بفضل حياتهن التي تفيض
بالخشوع الهادئ والعمل في ابتهاج لخدمة بني الإنسان . ولو أن آثام
التاريخ جميعها وزنت أمام فضائل أولئك النساء لرجحتها هذه الفضائل
ولكفرت عن كل ما اقترفه الجنس البشري من ذنوب .

الفصل السادس

المتصوفة

واستطاعت كثيرات من أولئك النساء أن تكن قديسات لأنهن أحسنن بالالوهية أقرب إليهن من أيديهن وأرجلهن . وقد تأثرت أخيلة الناس في العصور الوسطى بكل ما كان للألفاظ ، والصور ، والتماثيل ، والحفلات ، من قوة ، بل تأثرت فوق هذا بلون الضوء ومقداره تأثيراً جعل الروى غير الحسية تتوارد سراعاً على هذه الأخيلة ، فكانت النفوس المؤمنة تحس بأنها تخترق حدود الطبيعة إلى ما فوق الطبيعة . وكان العقل البشرى نفسه بكل ما له من سلطان غامض خفى يبدو كأنه شئ خارق للطبيعة ، وللأشياء الأرضية ، وقريب بلا ريب من العقل الكلى الذى يسير مادة العالم ويمكن فيها - أو أنه صورة من هذا العقل الكلى غير واضحة المعالم . وعلى هذا فإن فى مقدور ذروة العقل أن تمس أسفل عرش الله . وكان الصوفى الخاشع المتذلل الطموح يتحرق أملاً فى أن تسمو روحه غير المثقلة بالذنوب ، والتي علت بالصلوات ، بفضل الله ونعمته إلى الروى الطوباوية والصحبة الإلهية ، ولم يكن من المستطاع بلوغ هذه الروى عن طريق الحس ، أو العقل ، أو العلم ، أو الفلسفة المقيدة بالزمان ، وبالكثرة ، وبالأرض ، ولا تستطيع أن تصل إلى لب الكون وقوته ، ووحدته . وكانت المشكلة التى يواجهها الصوفى هى أن يطهر النفس التى هى عضو داخلى للإدراك الروحى ، وأن يوسع أفقها وجبها حتى تشمل أقصى ما يمكن أن تشمله ، فإذا تم لها ذلك رأت بقوة البصر الواضحة المجردة من الجسم معالم الكونية ، والخلد ، والالوهية ؛ ثم عادت ، وكأنها عادت من نفى طويل المدى ، إلى الوحدة مع الله الذى افترقت منه حين ولدت عقاباً لها . ألم يعد المسيح ذوى القلوب الطاهرة أن يروا الله ؟

ولهذا ظهر الصوفيون في كل عصر ، وفي كل دين ، وفي كل أرض ، وامتثلت بهم المسيحية اليونانية رغم ما خلفه اليونان من تراث عقلي ؛ وكان القديس أوغسطين ينبوع التصوف الذي نهل منه الغرب ، وكانت اعترافاته بمثابة عودة الروح من الكائنات المخلوقة إلى الله . وقبلما استطاع إنسان أن يطول تحدّثه إلى الذات العلية كما طال تحدّث أوغسطين إليها . وقد ناصر القديس أنسلم السياسي والقديس برنار المنظم ، ذلك الاتصال الصوفي ليقاوما به النزعة العقلية التي كان يقول بها روسلن Roscelin وأبلار . ولما أخرج وليم الشمبوى Wiliam of Champeaux من باريس بقوة منطق أبلار أنشأ في إحدى ضواحيها (١١٠٨) دير القديس فكتور St. Victor الأوغسطيني ليكون مدرسة للاهوت ؛ وتجاهل خليفته Hugh ورتشرد Richard خطر الفلسفة الناشئة الداهية ، فلم يقيما قواعد الدين على الحجة والبرهان ، بل أقاماهما على الإحساس الصوفي بالحضرة الإلهية . فقد كان هيو (المتوفى عام ١١٤١) يرى في كل صورة من صور الخلق رمزاً فلسفياً ، وكان رتشرد (المتوفى عام ١١٧٣) يرفض المنطق والعلم ، ويؤثر « القلب » على « الرأس » على طريقة بيسكال ، ويصف بمنطق العالم القدير السمو الصوفي للروح إلى مقام الذات العلية .

وأحالت عواطف إيطاليا القوية هذه النزعة الصوفية ثورة متأججة . وحدث أن تآقت نفس يواقيم الفلوراثي Joachim of Flora - أو جيوفني دى يواقيمي دى فيورى Giovanni dei Joacchimi di Fiori - أحد نبلاء كالابريا Calabria إلى رؤية فلسطين ، وتأثر بما شاهده في طريقه من بوّس الناس ، فصرف حاشيته ، وواصل سيره كما يسير الحاج الذليل . وتقول إحدى القصص إنه قضى في سنة من السنين الصوم الكبير كله على جبل طابور ، وأن حالة عظيمة تبدت له في يوم عيد القيامة ، وملاّته نوراً إلهياً فهم به لساعته كل ما جاء في الكتاب المقدس ، وكل ما في المستقبل والماضي . فلما عاد إلى كالابريا أصبح راهباً وقسا سترسيا ،

ونالت نفسه إلى الزهد والتقشف ، وآوى إلى صومعة . والتف حوله عدد من الأتباع والمريدين ، وألف منهم طائفة جديدة من رهبان فلورا . وصدق سلسين الثالث Calistine III على ما وضعه لهم من دستور للفقر والصلاة . وبعث إلى إنوسنت في عام ١٢٠٠ بطائفة من مؤلفاته قال إنه كتبها بوحى من الله ، ولكنه رغم هذا يضعها بين يدى البابا ليبحثها ويبدى رأيه فيها . ثم مات بعد سنتين من ذلك الوقت .

وكان أساس كتابته هو النظرية الأوغسطينية - التى كانت تلقى قبولا عظيما لدى جميع المتمسكين بالدين القويم - القائلة بأن هناك توافقا رمزيا بين الحوادث الواردة فى العهد القديم وفى تاريخ العالم المسيحى من مولد المسيح إلى قيام مملكة السماء على الأرض . وقسم يواقيم تاريخ البشر ثلاث مراحل : كانت أولاها تحت حكم الله الأب وانتهت بمولد المسيح ، والثانية بحكمها الابن وتستمر وفقاً للحساب السرى ١٢٦٠ سنة ، والثالثة تحت حكم الروح القدس ، ويسبقها عهد من الاضطراب ، والحرب ، والفقر ، وفساد الكنيسة ، ويؤذن بحلولها قيام طائفة جديدة من الرهبان تطهر الكنيسة وتحقق طوفى عالمية من السلام والعدالة والسعادة (٨٦) .

وصدق آلاف من المسيحيين ، ومنهم رجال ذوو مناصب عالية فى الكنيسة ، ما قاله يواقيم عن الوحى الذى أوحى إليه ، وأخذوا يتطلعون والأمل يعمر قلوبهم إلى الميلاد الثانى فى عام ١٢٦٠ . وبعثت تعاليم يواقيم الشجاعة فى قلوب الفرنسيسيين الروحيين الذين كانوا يوقنون بأنهم هم الطائفة الجديدة ، ولما أن أعلنت الكنيسة أنهم خارجون على القانون واصلوا دعوتهم بما أذاعوه من الكتابات التى تحمل اسمه . وظهرت فى عام ١٢٥٤ مجموعة من أهم مؤلفات يواقيم بعنوان الروح الخالد وعليه تعليق يقول : إن بابا من البابوات ملوثا ببيع المناصب الكهنوتية سيكون

خاتم العهد الثاني ، وإن الحاجة إلى العشاء الرباني وإلى التساوسة تنتهي في العهد الثالث حين يسود الحب العالمي . وحرمت الكنيسة قراءة هذا الكتاب ، وحكم على راهب فرنسي يدعى جراردو دا بورجا Ghérards da Borga ظُن أنه هو مؤلفه بالسجن مدى الحياة ؛ ولكن الكتاب ظل يُتداول سرا ، وكان له أثر بالغ في التفكير الصوفي وفي تفكير الطوائف الضالة في إيطاليا وفرنسا من أيام فرانسس إلى أيام دانتي - الذي جعل ليوأقيم مكاناً في الجنة .

وتأججت حول بروصة في عام ١٢٥٩ سورة جنونية من الندم والتوبة من الذنوب واكتسحت شمالي إيطاليا ؛ ولعل الباعث عليها كان هو التحمس الشديد في ترقب حلول مملكة السماء . وأخذ آلاف من القادمين من مختلف الطبقات والأعمار يسرون في مواكب غير منتظمة وليس عليهم من الثياب إلا ما يستر حقوبهم ، يبكون ويرجون الله الرحمة ، ويضربون أنفسهم بسياط من الجلد . وانضم إلى هذه المواكب للصمص والمرابون وردوا ما كسبوا من المال الحرام ، متأثرين بعدوى الندم ، فكانوا يركعون أمام أقارب ضحاياهم ويطلبون إليهم أن يقتلوهم ؛ وأطلق سراح المسجونين ، وطلب إلى المنفيين أن يعودوا إلى أوطانهم ، وزالت العداوات بين الناس وصفت القلوب . وسرت هذه الحركة من ألمانيا إلى بوهيميا ، وخيل إلى الناس وقتاً ما أن إيماناً جديداً صوفياً سيغمر أوروبا بأجمعها متجاهلاً الكنيسة . ولكن فطرة الإنسان ما لبثت أن استعادت قوتها ، فتأججت نار العداوة بين الناس مرة أخرى ، وخبت نار تلك السورة الجنونية ، سورة الجلد بالسياط ، واختفت في الأعماق النفسية التي خرجت منها (٨٧) .

وفي فلاندرز سارت حركة التصوف سيراً هادئاً متصلاً . ذلك أن قسا من لبيج يدعى لامبير له بيج Lambert le Beuge (أي المهته) أنشأ على ضفاف نهر الموز Meuse في عام ١١٨٤ بيتاً للنساء اللاتي يردن أن يعشن معاً في

جماعات صغيرة نصف شيوعية ، دون أن يقسمن أيمان الرهبنة ، ويسعلن أنفسهن ينسج الصوف وعمل المخرمات . وأنشئت للرجال طائفة أخرى من **بيوت الله** مماثلة لهذا البيت ، وأطلق الرجال على أنفسهم اسم (البيجارد Beghard) أى الرجال المتهين وعلى النساء اسم البجوين (أى المتهات) . وكانت هذه الجماعات تندد بالكنيسة ، كما يندد بها الولدنيون ، لافتنائها الأملاك ، وسلكوا هم أنفسهم سبيل الفقر الاختيارى . وظهرت فى أجزبرج عام ١٢٦٢ شيعا أخرى هى شيعية لإخوان الروح الحر وثبتت أصولها فى المدن القائمة على ضفاف نهر الرين . وكانت كلتا الحركتين تدعى أنها تتلقى الوحي الصوفى الذى يعفيا من سيطرة الكهنوت ، بل يعفيا فوق ذلك من سيطرة الدولة والقانون الأخلاقى (٨٨) . وتضافرت الدولة والكنيسة على قمع الحركتين ، فاندفعتا إلى العمل فى الخفاء ، وكانتا تظهران للعمل جهرة عدة مرار بأسماء جديدة ، وكانتا من أسباب نشأة شيعا المنكرين للتعميد وغيرها من الشيع المتطرفة التى ظهرت فى أيام الإصلاح الدينى ومنبعوا روح الحماسة فى هذه الشيع .

وصارت ألمانيا أرض التصوف المحبوبة فى بلاد الغرب ، ففيا عاشت هلدجارد البنجنية Hildegard of Bingen (١٠٩٩ — ١١٧٩) « سييلة الرين » the Sibyle of the Rhine كل حياتها البالعة اثنين وثمانين عاما ، عدا عامين اثنين ، راهبة بندكتية ، واختتمتها رئيسة دير للنساء على روبرتسبرج Rupertsburg . وكانت مزيجا غير مألوف من حسن الإدارة والروى الخيالية ، تقية ومتطرفة ، شاعرة وعالمة ، طيبية وقديسة ؛ وكانت تراسل البابوات والملوك ، وتكتب إليهم دائما بنغمة صاحبة السلطان الملهم ، فى لغة لائنية رصينة قوية قوة لغة الرجال . وقد نشرت عدة كتب فى الروى الدينية (Scivias) ادعت فيها معاونة الذات العلية ؛ وكان رجال الدين يغضبون حين يستمعون إليها لأن حديثها الملهم كان نقداً لازعا لثراء الكنيسة وفسادها . قالت هلدجارد بعبارات تفيض بالآمال الخالدة .

إن للعدالة الإلهية ساعتها المحدودة ... وإن أحكام الله لتوشك أن تنفذ ؛
وستنهار الإمبراطورية والبابوية معاً بعد أن ترديا في هوة الإلحاد ...
ولكن أمة جديدة ستقوم على أنقاضهما .. وستضم الوثنيين ، واليهود ،
وعبياد الدنيا ، والكفرة جميعاً ، وسيسود العالم ربيعُ الدهر والسلام بعد
مولده الجديد ، ويعود الملائكة وهم واثقون إلى السكنى بين الآدميين^(٨٩) .

وبعد مائة عام من ذلك الوقت أثارت إليصابات الثورنجياثية (١٢٠٧ -
١٢٣١) بلاد المجر بحياتها القصيرة التي قضتها زاهدة متبلة . وإليصابات
هذه ابنة الملك اندرو Andrew وقد تزوجت وهي في الثالثة عشرة من
عمرها بأمر ألماني ، وكانت أمّاً في الرابعة عشرة ، وأرملة في سن العشرين .
ونهب أخو زوجها مالها وطردها في فقر مدقع ؛ فلجأت إلى حياة الورع
والتجوال ، ووهبت حياتها للفقراء ، وكانت تؤوى النساء المصابات بالجذام ،
وتغسل جروحهن . وكانت هي الأخرى تترأى لها رؤى سماوية ،
ولكنها لم تكن تذيعها ، ولم تدع لنفسها أية قوى خارقة ولما التقت
بكونراد الماربرجي Conrad of Marburge عضو محاكم التحقيق الشرس
افتتنت افتناناً وببلا بقسوته في إخلاصه للدين ، فأضحت جاريته
المطبعة ، يضربها إذا حادت قيد شعرة عما يعتقد أنه هو الصلاح والتي ،
فكانت تخضع له خضوع الأذلاء ، وتفرض على نفسها ضرباً شديداً من
التشفي عجلت منيتها ولما تجاوزت الرابعة والعشرين من عمرها^(٩٠) . وبلغ من
اشتهارها بالقوى أن من كان يسير في جنازتها من أتباعها المخلصين الذين كادت
تذهب النشوة بعقولهم قصوا شعر رأسها ، وقطعوا أذنها ، وحامى ثديها ليتخذوها
مخلفات مقدسة^(٩١) . ودخلت إليصابات أخرى الدير النسائي البندكتي في شنو
Schonau القريبة من بنجن وهي في الثانية عشر من عمرها (١١٤١) ،

وعاشت فيه حتى توفيت في عام ١١٦٣ . وكان ضعفها الجسمي ، وإسرافها في زهدها يسببان لها نوبات من الإغماء ، تتلقى فيها إلهاماً من مختلف الأولياء المتوفين ، كلهم تقويماً من المعادين للكنيسة . ومما قاله لها ملكها الحارس « إن كرامة الله قد ذبلت ، وإن رئيس الكنيسة لمريض ، وإن أعضاءها لأموات ... أى ملوك الأرض ! إن ظلمكم الصارخ قد ارتفع دويه حتى وصل إلى أنا نفسي » (٩٢) .

وعلت موحاة التصوف في أواخر ذلك العهد في ألمانيا ، وكان من متصوفها مستر إكهارت Meister Eckhart الذى وُلد حوالى عام ١٢٦٠ ، والذى نضجت آراؤه الصوفية في ١٣٢٦ ، والذى حوكم وتوفى في عام ١٣٢٧ . وواصل تلميذه سوسو Suso وتولر Tauler دعوته إلى وحدة الوجود الصوفية ، وكانت هذه التقاليد ، تقاليد التقوى غير الكنسية ، أحد الينابيع التى قاضت منها حركة الإصلاح الدينى .

وكانت الكنيسة في العادة تحمل هؤلاء المتصوفين وتقبلهم في كنفها . نعم لأنها لم تكن تسمح بأن يخرج أحد خروجاً خطيراً عن قواعدها الرسمية ، أو تجيز الفردية الفوضوية التى تدعو إليها بعض الشيع الدينية ، ولكنها كانت ترضى عن قول الصوفية إنهم يتصلون اتصالاً مباشراً بالله عز وجل ، وتستمتع في غير غضب إلى تنديد الأولياء بأخطائها الآدمية . وكان كثيرون من رجال الدين ، ومهم ذوو المناصب العالية في الكنيسة ، يعطفون على ناقدتهم ، ويعترفون بما في الكنيسة من عيوب ، ويتمنون أن لو استطاعوا هم أيضاً أن يتخلوا عن الأدوات والأعمال التى يضطلعون بها في الشئون السياسية الدنيوية وما فيها من أدران تلوثهم ، ويستمتعوا بما في الأديرة من طمأنينة وسلام ، يطعمون من تقوى

الشعب ، ويحميهم سلطان الكنيسة . ولعل هؤلاء الصابرين من رجال الكنيسة هم الذين ثبتوا قواعد الدين المسيحى بين زعازع الإلهام الجنونى التى كانت تهدد العقول فى العصور الوسطى بأشد الأخطار من حين إلى حين . وكلما أمعنا فى دراسة أقوال متصوفة القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، لاح لنا أن الاستمسك بأصول الدين القويم كثيراً ما كان هو الواقع من انتشار الخرافات الملعنة ، وأن الكنيسة من إحدى النواحي عقيدة — كما كانت الدولة قوة — أخرجت من القوضى نظاماً ليحافظ على سلامة عقول الناس .

الفصل السابع

البابا المنكود

لما ارتقى جريجورى الثانى عرش البابوية فى عام ١٢٧١ كانت الكنيسة مرة أخرى فى عنفوان قوتها . ولم يكن جريجورى بابا فحسب ، بل كان إلى هذا مسيحياً متمسكاً بأداب المسيحية : كان رجل سلام ومحبة ، ينشد العدالة لا النصر . وكان يأمل أن يسترد فلسطين بجهود واحد جامع ، فأقنع البندقية ، وجنوى ، وبولونيا بأن تضع حداً للحروب القائمة بينها ، وعمل على أن يختار رودلف هابسبرج Rudolf of Hapsburg إمبراطوراً ، ولكنه خفف بلطفه ورقته غضب المهزومين من المطالبين بالعرش ، ووفق بين طائفتى الجلف Guelf والجيلين Ghibelline فى فلورنس وسينا المنقسمتين على نفسيهما ، وقال لمؤيديه من الجلف « إن أعداءكم جيلينيون ولكنهم مع ذلك رجال ، ومواطنون ، ومسيحيون »^(٩٣) . ودعا أحرار الكنيسة الى مجلس يعقد فى ليون (١٢٧٤) ؛ وجاءه فى عام ١٥٧٠ زعماء الكنيسة وأرسلت كل دولة عظمى ممثلاً لها ، وبعث إمبراطور الروم برؤساء الكنيسة اليونانية ليؤكد من جديد خضوعها إلى الكرسي البابوى فى رومة وأنشد رجال الدين اللاتين واليونان معاً نشيد الفرح والغبطة . ودعى الأساقفة أن يتقدموا بما فى الكنيسة من عيوب تحتاج إلى الإصلاح ، فلبوا الدعوة فى صراحة منقطعة النظر^(٩٤) ، وسنت القوانين التى أريد بها تخفيف حدة هذه الشرور . واتحدت أوروبا كلها اتحاداً رائعاً لتقوم بمجهود موحد ضد المسلمين . ولكن جريجورى مات وهو عائد إلى رومة (١٢٧٦) وشغلت السياسة الإيطالية خلفاءه فلم يستطيعوا تنفيذ ما وضعه من خطط .

ومع هذا فإنه لما اختير بنيفاس الثامن بابا فى عام ١٢٩٤ كانت البابوية

لا تزال أقوى الحكومات الأوربية ، وأحسنها تنظيماً ، وخيرها إدارة ، وأنماها موارد . وكان من سوء حظ الكنيسة ، في هذا الوقت العصيب الذى أوشك أن يختم به قرن من القوة والتقدم ، أن جلس على أقوى العروش فى العالم المسيحى رجل كان له من فساد الخلق ، والخطرة الشخصية ، والحرص على السلطان حرصاً خالياً من الكياسة ، بقدر ما كان له من حب الكنيسة ، وإخلاص فى المقصد . ولم يكن هذا الرجل خلواً من الفضائل الفاتنة : فقد كان محباً للعلوم ، يضارع إنوسنت الثالث فى تجاربه القانونية ، وثقافته الواسعة ؛ أنشأ جامعة رومة ، وأعاد مكتبة الفاتيكان ووسع نطاقها ، وعين جيتو Giorro وأرنلفو دى كميرو Arnolfo di Cambio فى مناصب عالية ، وساعد بما له على إنشاء واجهة كنيسة أرفيتو Orviero الرائعة المدهشة .

وكان قد مهد السبيل لتسليمه عرش البابوية بأن أقنع سلسلتين الخامس Celestine V الورع العاجز أن ينزل عن العرش بعد أن جلس عليه خمسة أشهر - وكان هذا عملاً لم يسبق له مثيل من قبل . وأحاط ببنيفاس من يادئ الأمر بالبغض منذ البداية . وأراد أن يحبط كل ما عساه أن يدبر من خطط لإعادة سلسلتين ، فأمر بأن يحجز هذا الشيخ البالغ من السن ثمانين عاماً فى رومة ؛ ولما فر سلسلتين ، قبض عليه ، ثم فر مرة ثانية ، وقضى عدة أسابيع يحول فى أنحاء أبوليا ، حتى وصل إلى البحر الأدريائى ، وحاول أن يعبره إلى دمياط ، ولكن القارب الذى كان يركبه تحطم به ، وقذفه البحر إلى إيطاليا وجيء به أمام بنيفاس ، وحكم عليه البابا بالسجن فى حجرة ضيقة فى فرنتينو Ferentino ، ومات بها بعد عشرة شهور من بداية سجنه (١٢٩٦) (٩٥) .

وكان مما زاد طبع البابا الجديد حدة أن أصيب بسلسلة متتابعة الحلقات من الهزائم الدبلوماسية والانتصارات الكثيرة الأكلاف . فقد حاول أن يثنى فردريك صاحب أرغونة عن قبول عرش صقلية ، ولما أصر فردريك على قبوله

حرمه بنيفاس ، وأصدر قرار التحريم على الجزيرة (١٢٩٦) . ولم يبال الملك ولا الشعب بهذا العقاب^(٩٦) ، واضطر بنيفاس في آخر الأمر أن يعترف بفردريك . وأعد العدة لحرب صليبية بأن أمر البندقية وجنوى بعقد هدنة ، ولكنهما رفضتا توسطه في الصلح وواصلتا الحرب ثلاث سنين أخرى ، ولما عجز عن أن يقيم في فلورنس نظاماً يوافق مصالحه أصدر قراراً بحرمان المدينة ، ودعا شارل صاحب قالوا أن يدخل إيطاليا ويهدئها (١٣٠٠) . ولم يفلح شارل إلا في كسب حقد الفلورنسيين عليه وعلى البابا . وأراد بنيفاس أن يبسط راية السلم في ولاياته البابوية فحاول أن يفض النزاع القائم بين أعضاء أسرة كولنا Colonna القوية ؛ ولكن پيترو Pietro وجا كوپو Jacopo ، وكلاهما كردينال ، رفضاً عروضه ففصلهما ، وحرهما من الدين (١٢٩٧) ، فما كان من الكردينالين المتمردين إلا أن علقا على أبواب الكنائس الرومانية ، ووضعوا على مذبح القديس بطرس ، منشوراً يطلبان فيه إلى البابا أن يدعو مجلساً كنسياً عاماً . وكرر بنيفاس قرار الحرمان ، وضم فيه إليهما خمسة آخرين من الخارجين عليه ، وأمر بمصادرة أملاكهما ، وغزا أملاك أسرة كولنا بالجيوش البابوية ، واستولى على حصونها ، ودك أبنية فلسطينا Palestina ، وأمر بنثر الملح فوق خرباتها . واستسلم العصاة ، وعفا عنهم ، ثم ثاروا مرة أخرى وهزمهم جيوش البابا للمرة الثانية ، وفروا من الولايات البابوية ، وأخذوا يدبرون خطط الانتقام .

وبينا كان بنيفاس يلاقى هذه المحن في إيطاليا إذ واجهته على حين غفلة أزمة شديدة في فرنسا . فقد اعتزم فليب الرابع أن يوحد مملكته ، فاستولى على ولاية غسقونية الإنجليزية ؛ وأعلن إدورد الأول عليه الحرب (١٢٩٤) ؛ وأراد كلا الملكين أن يجمع المال الذي يستعين به على قتال عدوه ، فقررا أن يفرضا الضرائب على أملاك الكنيسة ورجالها . وكان البابوات قد أذنوا بفرض هذه الضرائب للاستعانة بها في الحروب الصليبية ، ولكنهم لم يأذنوا بها قط لإنفاقها

في حرب زمنية خالصة . كذلك كان رجال الدين الفرنسيون قد اعترفوا بأن من واجهم أن يشتركوا بالمال في الدفاع عن الدولة التي تحمي أملاكهم ، ولكنهم كانوا يخشون أنه إذا أطلق حق الدولة في فرض الضرائب من كل قيد ، أصبح ذلك قوة في يدها تستخدمه للهدم . وكان فليب قد أضعف من قبل مكانة رجال الدين في فرنسا ؛ فقد أخرجهم من المحاكم الإقطاعية والملكية ، ومن مناصبهم القديمة في الإدارة الحكومية وفي مجلس الملك . وأزعج هذا الاتجاه الرهبان اليساريين فنعوا عن فليب خمس إيراداتهم التي طلبه ليستعين به في حرب إنجلترا ، وبعث رئيس الجماعة يستنجد بالبابا . وكان لابد لبنيان أن يسير بحذر لأن فرنسا كانت من زمن بعيد أقوى عماد للبابوية في كفاحها مع ألمانيا والإمبراطورية ، ولكنه أحس بأن الأساس الاقتصادي لسلطان الكنيسة وحريتها لن يلبث أن ينهار إذا ما انتزع منها إيراداتها بفرض ضرائب من قبل الدولة على أملاك الكنيسة دون موافقة البابا . ولهذا أصدر في شهر فبراير من عام ١٢٩٦ مرسوماً بابوياً يعد من أشهر ما أصدره البابوات من مراسيم في التاريخ الكنسي كله ، وسمى هذا المرسوم بالكلمتين الأوليين منه Clericis laicos ، وكانت جملة الأولى اعترافاً غير حكيم ، وكانت نغمته تذكر قارئه بصواعق جريجوري السابع :

يقول الأقدمون إن العلمانيين شديداً العداء لرجال الدين ؛ وتجاربنا لا تترك مجالاً للشك في صدق هذا القول في الوقت الحاضر . . . وإنا لنقرر بعد استشارة إخواننا ، وبمقتضى سلطتنا الرسولية أنه إذا أدى أحد من رجال الدين . . . إلى إنسان من العلمانيين . . . أي جزء من إرادته أو أملاكه . . . بغير إذن من البابا ، عرض نفسه للحرمان من الدين . . . ونقرر أيضاً أن كل إنسان أياً كانت سلطته أو مرتبته يطلب هذه الضرائب أو يتسلمها ، أو يغتصب أملاك الكنائس أو رجال الدين ، أو يتسبب في اغتصابها . . . يتعرض بذلك للحرمان (٩٧) .

أما فيليب فكان قوى الاعتقاد بأن ما للكنيسة في فرنسا من ثروة عظيمة يجب أن تتحمل نصيبها في نفقات الدولة ، ولهذا عارض مرسوم البابا بأن حرم تصدير الذهب والفضة والأحجار الكريمة ، والطعام ، وبأن حرم التجار أو المبعوثين الأجانب البقاء في فرنسا . وحالت هذه الإجراءات دون وصول المال إلى البابوية من أهم مصادر إيراداتها ، وأخرجت من فرنسا عمال البابا الذين كانوا يجمعون المال لحرب صليبية في الشرق . ولهذا نكص بنيفاس في مرسومه inefabirilis Amor (سبتمبر عام ١٢٩٦) ، ووافق على تبرع رجال الدين بالمال مختارين في سبيل الدفاع الضروري عن الدولة ، واعترف بحق الملك في أن يقرر هو هذه الضرورة . وألغى فيليب أوامره الانتقامية ، وارتضى هو وإدورد أن يكون بنيفاس - لا بوصفه بابا ، بل بوصفه شخصاً عادياً - حكماً في النزاع القائم بينهما . وحكم بنيفاس لصالح فيليب في معظم أوجه النزاع ، وخضعت إنجلترا لحكمه إلى حين ، واستمتع المحاربون الثلاثة بفترة قصيرة من السلم .

وقرر بنيفاس أن تكون سنة ١٣٠٠ سنة عيد ، ولعله أراد بذلك أن يملأ الخزانة البابوية ، بعد أن نقصت إيراداتها من إنجلترا وفرنسا ، أو لعله أراد أن يجمع المال اللازم لحرب يستعيد بها صقلية بوصفها إقطاعية بابوية . ولحرب أخرى يوسع بها الولايات البابوية حتى تشمل تسكانيا^(٩٨) . ونجح في هذه الخطة نجاحاً تاماً ؛ فلم تشهد رومة من قبل جوعاً كالتى شهدتها في ذلك الوقت . وفرضت حينئذ ، ولعلها فرضت للمرة الأولى ، قواعد المرور للإشراف على حركات الناس^(٩٩) . وأحسن بنيفاس ومساعدوه إدارة شئون المدينة فجلبوا إليها الطعام موفوراً وبيع فيها بأثمان معتدلة تحت إشراف البابا ورجاله . وكان من المزايا التى استمتع بها البابا أن الأموال الكثيرة التى جمعت بهذه الطريقة لم تكن مخصصة لغرض بالذات ، بل كان فى وسعه أن يستخدمها كما يشاء . وبلغ بنيفاس وقتئذ ذروة مجده رغم ما ناله من أنصاف الانتصارات وما أحاق به من الهزائم المنكرة

لكن المنفيين من آل كولنا كانوا في هذا الوقت عينه يسلون فليب
بقصص عن شره البابا وظلمه ، وضلالاته الشخصية الخفية . ثم حدث
نزاع بين أعوان فليب و برنارد سيسر Bernard Saisser المندوب البابوى .
وقبض على المندوب لاتهامه بأنه يحرض على الفتنة ، وقدم للمحكمة
الملكية ، وأدين ، ووضع تحت حراسة رئيس أساقفة نربونة (١٣٠١) .
وارتاع بنيفاس للسرعة التى حوكم بها مندوبه ، فطلب أن يطلق سراح
سيسر على الفور ، وأمر رجال الدين الفرنسيين أن يمتنعوا عن تسليم
الإيرادات الكنسية للدولة ، ثم طلب إلى فليب فى مرسومه المسمى
استمع يا وامى Auscultate fili (ديسمبر سنة ١٣٠١) أن يستمع فى خشوع
إلى خليفة المسيح بوصفه الملك الروحى على جميع ملوك الأرض ؛ واحتج
على محاكمة رجل من رجال الدين أمام محكمة مدنية ، وعلى الاستمرار فى
استخدام أموال الكنيسة فى الأغراض غير الدينية ، وأعلن أنه سيدعو
الأساقفة ورؤساء الأديرة فى فرنسا ليتخذوا الإجراءات « الكفيلة بالمحافظة
على حريات الكنيسة وبإصلاح المملكة وتقويم الملك » (١٠٠) . وحينما عرض
المرسوم على فليب ، اختطفه كونت أرتوا Artois من يدى رسول البابا
وألقاه فى النار ، وصودرت نسخة منه كانت معدة لأن ينشرها رجال
الدين الفرنسيون . وثارت ثائرة الطرفين حين نشرت وثيقتان زائفتان قيل
إن إحداهما صادرة من بنيفاس إلى فليب تطلب إليه أن يطيعه فى كل الشئون
حتى الزمنية منها ، والأخرى من فليب إلى بنيفاس تبكّل « حماقتك العظيمة
أننا لانخضع لإنسان ما فى الشئون الزمنية » وسرعان ما ساد الاعتقاد بأن
هاتين الوثيقتين المزورتين صحيحتان (١٠١) .

وفى اليوم الحادى عشر من فبراير سنة ١٣٠٢ حرق مرسوم « استمع
يا وامى » رسميا فى باريس فى حضرة الملك وجمهور كبير . وأراد فليب أن يستبق
المجلس الكنسى الذى يريد بنيفاس عقده فدعا الطبقات الثلاث فى مملكته

إلى الاجتماع في باريس في شهر إبريل . وكتبت كل طبقة بمفردها من طبقات الأمة الثلاث - الأشراف ، ورجال الدين ، والعامّة - في هذا المجلس ، مجلس الطبقات ، الأول من نوعه في تاريخ فرنسا ، كتبت كل طبقة إلى رومة تدافع عن الملك وعن سلطته الزمنية ، وحضر نحو أربعة وخمسين من المطارنة الفرنسيين مجلس رومة الذي عقد في شهر أكتوبر من عام ١٣٠٢ على الرغم من حظر فليب ومصادرة أملاكهم . وأصدر هذا المجلس القرار المسمى Unamsanctum الذي حدد فيه مطالب البابوية تحديداً صريحاً صراحة تلتفت الأنظار . وجاء في هذا المرسوم أنه لا توجد إلا كنيسة واحدة لا نجاة لأحد في خارجها ، وأن ليس للمسيح إلا جسد واحد له رأس واحد لا رأسان ، وأن هذا الرأس هو المسيح ومثله البابا الروماني ، وأن هناك سيفين أي قوتين القوة الروحية والقوة الزمنية ؛ الأول تحمله الكنيسة ، والثاني يحمله الملك نائباً عن الكنيسة ، ولكنه يحمله تبعاً لإرادة القس ويلأذن منه . والسلطة الروحية فوق السلطة الزمنية ، ومن حقها أن ترشدّها إلى أسس غاياتها ، وأن تحكمها إذا ارتكبت إثمًا . واختتم المرسوم بالعبارة الآتية : « ونعلن ، ونحدد ، وننطق بأن من الضروري للنجاة أن يخضع الناس جميعاً للرئيس الديني الروماني » (١٠٢) .

وكان رد فليب أن دعا جمعيتين إلى الانعقاد (في شهرى مارس ويونية من عام ١٣٠٣) وأن أصدرت الجمعيتان وثيقة اتهم فيها بنيفاس رسمياً بأنه ظالم ، وساحر ، وكافر (١٠٣) ، وطلبت أن يخلعه مجلس عام للكنيسة . وبعث الملك وليم نوجارت William Nogaret كبير رجال القانون عنده إلى رومة ليلبغ البابا ما يطلبه الملك من دعوة مجلس عام . وكان البابا وقتئذ في القصر البابوي بأناني Anagni فأعلن أن البابا وحده هو الذي يحق له أن يدعو مجلساً عاماً ، وأعدّ مرسوماً يحرم فيه فليب ويصب اللعنة على فرنسا . وقبل أن يصدره سار وليم نوجارت وسياراكولنا Siarra Colonna على رأس ألفين من الجنود المرتزقة

واقترحوا القصر ، وقدموا إلى البابا رسالة فيليب ، وطلبوا إليه أن يوقعها (٧ سبتمبر سنة ١٣٠٣) ، فرفض بنيفاس هذا الطلب . وتقول رواية « موثوق بصحتها أعظم الثقة »^(١٠٤) إن سياراً لطم الحبر الأعظم على وجهه وإنه كاد يقتله لولا تدخل نوجات . وكان بنيفاس وقتئذ في الخامسة والسبعين من عمره ، ضعيف الجسم ، ولكنه ظل يتحدى خصومه . وبقي ثلاثة أيام سجيناً في قصره والجنود المرتزقون يهينونه . ولكن أهل أناني يؤيدهم أربعمئة فارس من عشيرة أرسيني Orsini فرقوا الجنود المرتزقين وأعادوا إلى البابا حريته . ويلوح أن سجانیه لم يقدموا له طعاماً مدى الثلاثة الأيام السابقة على تحريره ؛ لأنه وهو واقف في السوق سأل : « إن كانت هناك امرأة صالحة ترضى أن تقدم لي صدقة من النبيذ والخبز ، فأني أمنحها بركة الله وبركتي » . وقاده فرسان الأرسيني إلى رومة وإلى الفاتيكان ، وهناك انتابته حمى شديدة مات منها بعد أيام قليلة (في الحادي عشر من شهر أكتوبر سنة ١٣٠٣) .

وحرّم خليفته بندكت الحادي عشر (١٣٠٣ - ١٣٠٤) نوجارت ، وسيارا كولنا ، وثلاثة عشر غيرهما من الرجال رأهم يقتحمون القصر في أناني . ومات بندكت بعد شهر من ذلك الوقت في بروجيا ، وربما كان أحد الجبلين الإيطاليين قد دس له السم^(١٠٥) . ووافق فليب على أن يؤيد برتراند ده جو Bertrand de Got رئيس أساقفة بوردو للجلوس على كرسي البابوية إذا نهج سياسة المصالحة ، وعفا عن حرموا من الدّين لهجومهم على بنيفاس ، وسمح بأن تجبي من رجال الدّين الفرنسيين ضريبة دخل سنوية مقدارها عشرة في المائة مدة خمس سنين ، وأن يعيد أفراد أسرة كولنا إلى مناصبهم ويرد إليهم أملاكهم . وأن يشهر بذكرى بنيفاس^(١٠٦) . ولستنا نعرف إلى أي حد وافق برتراند على هذه المطالب : وكل ما نعلمه أنه اختير بابا ، وتسمى باسم كلمنت الخامس (١٣٠٥) . وأنذر الكرادلة بأنه إن يكون آمناً على حياته في رومة ، فنقل

كلمنت كرسى البابوية إلى أفنيون القائمة على الضفة الشرقية لنهر الرون ، فى خارج الحد الشرقى لفرنسا وعلى بعد قليل منه (١٣٠٩) وانتقل إليها بعد تردد قليل ، وربما كان ذلك أيضاً بعد أن وصله اقتراح مريح من فليب . وهكذا بدأ « الأسر البابى » للبابوات الذى دام ثمانية وستين عاماً واستسلام البابوية لفرنسا ، بعد أن حررت نفسها من ألمانيا .

وأصبح كلمنت ، رغم إرادته الضعيفة ، أداة ذليلة فى يد فليب الذى لاحد لمطامعه ؛ فغفر للملك ذنوبه ، وأعاد رجال كولنا إلى مناصبهم ، وسحب موسوم Clercis laicoa وأجاز نهب أموال فرسان المعبد ، ووافق أخيراً (١٣١٠) على محاكمة بنيفاس بعد موته على أيدى مجمع كنسى عقد فى جروسو Groseau القرية من أفنيون . وشهد ستة من رجال الدين فى التحقيق المبدئى الذى أجرى أمام البابا ومأموريه أنهم سمعوا بنيفاس يشير قبل ستة من توليه منصبه الدينى إلى أن كل القوانين التى يفترض الناس أنها من عند الله قد اخترعها بعضهم لكى يلزموا العامة بأن يسلكوا مسلوكاً حسناً لخوفهم من الجحيم ، وإلى أن من « البلاهة » أن نعتقد أن الله واحد وثلاثة فى آن واحد ، أو أن عذراء قد ولدت طفلاً ، أو أن الله قد صار إنساناً ، أو أن الخبز يمكن أن يصبح جسم المسيح ، أو أن هناك حياة أخرى مستقبلية . « هذا ما يؤمن به وما أعتقد ، كما يؤمن به ويعتقده كل إنسان متعلم . أما السوق فيعتقدون غير هذا ، وعلينا أن نتكلم كما يتكلم السوق ، وأن نفكر ونعتقد كما تعتقد القليلة وتفكر » . ونقل هؤلاء الستة عن بنيفاس هذه الأقوال ، وأعاد هذه الشهادة ثلاثة منهم بعد أن سئلوا فيها بعد . ونقل رئيس دير القديس چيلز St. Giles القائم فى سان چمينو San Gemino عن بنيفاس حين كان الكردينال جيتانى Gaetani أنه أنكر بعث الجسم والروح ، وأيدى هذه الشهادة عدد آخر من رجال الدين . ونقل أحد رجال الدين عن بنيفاس أنه قال عن القربان المقدس « إنه ليس إلا فطيرة » . واتهم بنيفاس

رجال كانوا قبل ذلك من أفراد بيته بأنه كانت له كثير من الصلات الجنسية الآثمة ، الطبيعية منها وغير الطبيعية ، واتهم غيرهم هذا المتشكك المزعوم بأنه حاول الاتصال السحري بـ « قوى الظلام » (١٠٧) .

وأقنع كلمنت فليب قبل بدء المحاكمة الفعلية أن يترك مسألة إجرام بنيفاس إلى مجلس فينا العام الذى سيعقد فيما بعد . فلما عقد هذا المجلس (١٣١١) مثل أمامه كرادلة وشهدوا بأن البابا المتوفى كان مستمسكا بالدين القويم وبمكارم الأخلاق ، وألقى فارسان بقفازيهما متحدين ومؤيدين براءته عن طريق الاقتتال . لكن أحداً لم يقبل هذا التحدى وأعلن المجلس انتهاء المحاكمة .

الفصل الثامن

عودة على بدء

تكشف الأدلة التي قدمت ضد بنيفاس ، صادقة كانت أو كاذبة ، عن تيار التشكك الذي كان يجري في الخفاء على عصر الإيمان . وكذلك تدل 'لصفحة - المادية أو السياسية - التي وجهت إلى بنيفاس في أناني بمعنى من معانيها على بداية « العصر الحديث » : فقد كانت انتصاراً للقومية على ما فوق القومية ، وللدولة على الكنيسة ، ولقوة السيف على سحر الكلام . ذلك أن كفاح الكنيسة ضد آل هوهنستوف وإخفاق الحروب الصليبية قد أضعفنا من قوتها ، في الوقت الذي زاد فيه انهيار الإمبراطورية من قوة إنجلترا وفرنسا ، كما أثرت فرنسا باستيلائها على لانجويديك بمساعدة الكنيسة . ولربما كانت مناصرة الشعب لفليب الرابع على بنيفاس الثامن دليلاً على غضب هذا الشعب من غلو محاكم التحقيق والحملة الصليبية الألبجنسية ؛ فقد قيل إن محاكم التحقيق حرقت بعض آباء نوجارت (١٠٨) ، ولم يكن بنيفاس يدرك ، وهو يتورط في هذه المنازعات الكثيرة ، أن أسلحة البابوية قد تثلمت من الإفراط في استخدامها ؛ ثم إن الصناعة والتجارة قد أنشأتا طبقة من الناس أقل تقوى من طبقة الزراع ، وأن الحياة والتفكير قد نزعاً نزعة زمنية غير دينية ، وأخذت الطبقات العلمانية تدرك أهميتها ، وقبل أن تمضي سبعون سنة كانب الدولة قد طوت الكنيسة تحت جناحها .

وإذا ما ألقينا نظرة شاملة على المسيحية اللاتينية ، كان أهم ما ينطبع في ذهننا منها هو ما بين شعوبها المختلفة من وحدة نسبية في العقيدة الدينية ، وانتشار سلطان الكنيسة الرومانية الواسع ورجالها في كل مكان انتشاراً أكسب أوروبا

الغربية - أوروبا غير الصقلية ، وغير البيزنطية - وحدة في العقل والأخلاق لم ير لها قط مثيل بعد ذلك الوقت . ولسنا نعرف في التاريخ كله نظاما في غير هذه الرقعة من الأرض كان له مثل هذا الأثر العظيم في مثل هذا العدد من الناس ولمثل هذا الزمن الطويل . فقد دام سلطان الجمهورية الرومانية والإمبراطورية الرومانية على أملاكهما الواسعة من أيام پمبي الى أيام أليريك Alaric أى أربعائة وثمانين عاما ؛ ودامت إمبراطورية المغول والإمبراطورية البريطانية نحو مائة عام ؛ أما الكنيسة الكاثوليكية الرومانية فقد ظلت صاحبة السلطة العليا في أوروبا من موت شارلمان (٨١٤) إلى موت بنيفاس الثامن (١٣٠٣) أى ٤٨٩ عاماً . ويبدو أن تنظيمها وإدارتها لم يبلغا من الكفاية ما بلغاه في الإمبراطورية الرومانية ؛ كذلك لم يوت رجالها من القدرة والثقافة مثل ما أوتى الرجال الذين حكموا الولايات والمدن للقياصرة ؛ ولكن الكنيسة ورثت خليطاً من المميج السلوبي العقول ، وكان عليها أن تبذل الجهود المضنية لتشق لها طريقاً تعود به إلى بسط النظام ونشر التعليم . ولقد كان رجالها ، رغم هذه الظروف ، خير الرجال تعلماً في ذلك العصر ، وكانوا هم الذين قدموا للناس في أوروبا الغربية التعليم الوحيد المستطاع في خلال القرون الخمسة التي كان لها فيها السيادة والسلطان . وكانت محاكمها تقدم للناس أعدل ضروب العدالة في أيامها . فكانت المحكمة البابوية ، المرتشية تارة والنزيهة تارة أخرى ، إلى حد ما ، محكمة عالمية تحكم في فض المنازعات الدولية ، وتضيق نطاق الحروب . ولسنا ننكر أن هذه المحكمة كانت على الدوام مسرفة في نزعتها الإيطالية ، ولكن عقول الإيطاليين كانت في تلك القرون أحسن العقول تدريياً ، وكان في وسع أى إنسان أن يرقى إلى عضوية تلك المحكمة من أية طبقة ، ومن أية أمة في العالم المسيحي اللاتيني .

ولقد كان من الخير أن يكون فوق دول أوروبا وملوكها ، رغم أساليب الخداع التي تلجأ إليها عادة السلطة البشرية الجماعية ، سلطة عليا تستطيع محاسبة

هذه الدول وأولئك الملوك ، وتخفف من حدة منازعاتها ومنازعاتهم . وإذا كان لابد من قيام دولة عالمية ، فهل ثمة مقرر لها يبدو أليق من عرش القديس بطرس ، يستطيع الناس مهما يكن من ضيقه أن يتطلعوا منه بعين قاريّة ، من ورائها أحقاب طوال ؟ وهل ثمة قرارات أكثر قبولا عند الناس في سلام ، وأيسر تنفيذاً ، من قرارات حبر من الأحبار يجله جميع سكان أوروبا الغربية ويرون أنه خليفة الله في أرضه ؟ وحسبنا دليلاً على ما كان لقرارات هذه السلطة من قوة أنه لما خرج لويس التاسع إلى الحرب الصليبية في عام ١٢٤٨ ، اشتد هنرى الثالث ملك إنجلترا في مطالبه من فرنسا واستعد لغزوها . فأنذر البابا إنوسنت الرابع إنجلترا بالحرمان إذا أصر هنرى على مطالبه ، ونكص هنرى على عقبيه . ويقول هيوم المتشكك إن سلطان الكنيسة كان ملجأ حصينا من عسف الملوك وظلمهم^(١٠٩) ، ولو أن الكنيسة اقتصرَت في استخدام سلطانها على الأغراض الروحية والخلقية ، ولم تستخدمه قط لتحقيق الأغراض المادية ، لحققت المثل الأعلى الذى كان يرتجيه جريجورى السابع - ولجعلت سلطانها الأخلاقى يعلو على قوى الدول المادية . وكاد حلم جريجورى هذا يتحقق حين ضم إربان الثانى بشتات العالم المسيحى لقتال الاتراك ؛ فلما أن أطلق إنوسنت الثالث وجريجورى التاسع ، واسكندر الرابع ، وبنيفاس الثامن اسم الحروب الصليبية المقدسة على حروبهم ضد الألبجنسيين ، وفردريك الثانى وآل كولنا ، فلما فعلوا هذا تحطم المثل الأعلى العظيم فى أيدي البابوات الملوّخة بدماء المسيحيين .

وكانت الكنيسة إذا لم يهددها خطر تصطنع التسامح الكثير مع أصحاب الآراء المخالفة ، بل وآراء الضالين ، وسوف نجد ما لم تكن نتوقه من الحرية الفكرية بين فلاسفة القرنين الثانى عشر والثالث عشر ، بل سوف نجد هذه الحرية بين أساتذة الجامعات المرخصة من قبل الكنيسة ، والخاصة لإشرافها ؛ وكل ما كانت تطلبه أن يكون نقاشهم مقصوراً على المتعلمين ، ومفهوماً منهم

وحدهم ، وألا يتخذ صورة الدعوة الثورية للناس بأن يذبذبا عقيدتهم وكنيستهم (١١٠) . ويقول كاتب هو أكثر نقاد الكنيسة المحدثين نشاطا ، إن « الكنيسة إذ تضم السكان أجمعين ، تضم كذلك كل صنف من أصناف العقول ، من أكثر العقول تخريفا إلى أكثرها لا أدريه ، وإن كثيراً من العناصر التي لم تكن مستمكة بالدين الرسمي ، كانت تعمل تحت ستار الامتثال الرسمي بحرية أوسع مما يظن الناس عادة (١١١) » .

وجملة القول أن الصورة التي نرسمها في أذهاننا للكنيسة اللاتينية في العصور الوسطى هي أنها منظمة معقدة التركيب ، تبذل كل ما في وسعها ، رغم ما يتصف به أبنائها وزعمائها من عيوب كامنة في فطرة الآدميين ، لإرساء قواعد النظام الأخلاقي والاجتماعي ، ونشر العقيدة الدينية التي تسمو بالناس وتواسيهم وسط حطام حضارة قديمة ، وعواطف نائرة ، لمجتمع يجتاز دور النقاهاة .

لقد كانت أوروبا حين وحدتها كنيسة القرن السادس أشبه ببضاعة متناثرة بعد غرق سفينة بضاعة من الهمج المتنقلين ، وكانت خليطاً من الألسنة والعقائد ، وفوضى من الشرائع غير المسطورة التي لا يحصيها العد . ولكن الكنيسة وهبتها قانوناً أخلاقياً تؤيده سلطة فوق سلطة البشر ، تبلغ من القوة ما يكفي لقمع الغرائز غير الاجتماعية الكامنة في نفوس ذوى العنف من الناس ، وهبتها كذلك أديرة يلجأ إليها الرجال ، والنساء ، وتأوى المخطوطات القديمة ، وحكمتها بمحاكم كنسية ، وربتها في المدارس والجامعات ، وذلت قيادة ملوك الأرض لتحمل التبعات الأخلاقية وواجبات السلام ، وخلعت على حياة أبنائها بهجة الشعر ، والتمثيل ، والغناء ، وأوحت إليهم أن يقيموا أجل ما في التاريخ كله من أعمال فنية . ولما عجزت عن إقامة مدينة فاضلة تسودها المساواة بين رجال مختلفي الكفايات ، نظمت الصدقات والضيافات ، وحث الضعفاء إلى حد ما من الأقوياء . وكانت بلا ريب أعظم قوة تعمل لنشر لواء الحضارة في تاريخ أوروبا خلال العصور الوسطى .